

نوادير التراث
٣

أسرار تزيين الفرائد

للمحافظ جلال الدين السيوطي

دراسة وتحقيق
عبد المتواحد عطا

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار الاعتصام

صدر من هذه السلسلة

دار الاعتصام

١ - أسرار التكرار في القرآن للكرمانى

دار الاعتصام

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال

الهدي

أنا جميل من الله جمال إلى الأبد
أنا فتي في الله بعين وفاء مني
النظم في العمل والفكر .. والرفق في
البحث .. والحديث في الرأي .
فأنت فينا جميعاً أثر لا ينسى .. ونفوس
فمن وقار العلماء والذكر ..
فأنت الهدى غمرة من غمار غيرة ..
إلى الأبد في حالي محمد حسب الله
وفاء لعهد .. وعرفانا بجميل ..
وسجلكم في الأبد ..
أهدي هذا الكتاب

حقوق الطبع محفوظة

لِلنَّاشِرِ وَالْحَقِّقِ

دراسة
في الوحدة الموضوعية للقرآن
وأسرار ترتيب النزول الترتيب في الصحف

عظمة القرآن ووحدة الموضوعية

قال الجن حينما سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم :
(انا سمعنا قرآنا عجبا • يهدي الى الرشدا فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) •
واهتزت عقيدة الشرك في قلب رجل من صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة
حينما سمع بعض آياته من الرسول فقال : « ما هو بقول البشر » • وفزع
أئمة الكفر من قريش حينما شهدوا تأثير القرآن على القلوب فقالوا لزعمائهم
(لا تسمعوا لهذا القرآن والفوا فيه لعلكم تغلبون) • وسعى أهل النباهة
من فتيان العرب من أمثال عبد الله بن مسعود الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال : « يا رسول الله ، علمني من هذا القرآن » • حينما استأسر
قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الاسلام •

تلك واحدة من دلائل عظمة القرآن هي : سلطانه الروحاني الخفي على
القلوب ، وولايته المطلقة على مدارك الانس والجن على السواء ، وجاذبيته
المضيئة لقلوب المهتدين والجاحدين جميعا •

وقد يكون لبعض المكتوبات البشرية سلطان على المشاعر ، وجاذبية
للنفوس ، ولكنها لم تصل في ماضي الزمان ، ولن تصل في مستقبله الى
أعماق الروح ، ولا الى مستقر الايمان واليقين ، ولا الى قمة التضحية في
سبيلها بالمال والنفس كما وصل الرواد الأوائل للاسلام ايمانا بالقرآن ،
ويقينا بسلطانه ، واستشهادا في سبيل دعوته ، واحتمالا لما لا يطيقه بشر
في سبيل اعلاء كلمته •

تلك دلالة لا شك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ،
يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ،
وجبروت التعذيب الذي تسلطوا به على المؤمنين في مطلع الدعوة ، فما لبثوا
أن فجروا جديدا من ينابيع الايمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ، ووجدوا
شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول بما نفثوا من سموم الحقد والعداء ،
فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذي دارت رحاه على
رمال جزيرة العرب ، والذي طاشت في نهايته أحلام المعارضين على وفرة
المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من
المال ، واعواذ في السلاح يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وإيمان راسخ
بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت الى الأبد شوكة الكفر ، وسمح
الى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى
التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الاتحاد الضارية في ميدان الحرب وفي ميدان
الفكر ، فلم تزد تلك الهجمات الا انطلاقا الى آفاق جديدة من الارض ،
وانبلاجا لنوره على صدر الزمان ، وأعماقا بعيدة لجذوره في القلوب . ولئن
ذبلت في بعض أحقاب التاريخ هم أهل الحضارة القرآنية تحت تأثير الصدمات
المتوالية ، واستجابة المؤمنين الى أهواء النفوس ، فما كان هذا الذبول الا
غفوة أعقبها استجماع للقوة ، وروية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها
القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل
الاتحاد تمزق وخيبة وانحلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين الى
ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن من تسلط قريش ، ومن جبروت الروم ،
ومن جدل انفرس ، ومن سلاح الصليبية ، ومن نؤم اليهودية العالمية ، وأخيرا
من يريق المذاهب السياسية والاقتصادية وأخصها الشيوعية اليهودية ، وكان
من أبناء الاسلام اعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الأعزة على أوهام
الشيوعية ، فأعزوا في سبيل ذلك أهل الإهواء ، ولكن أولئك جميعا ذلوا
أمام صلابة الحق في القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل
الدولي عن النيل من ايمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذي لا يستطيعه الا
الكتاب الحكيم : أنه كتاب حضارة تندرج تحت لوائه الامم والشعوب ،
وتستسلم حضاراتها لحضارته ، فما نلث أن يحتويها الاطار الشامل للاسلام
الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لحير أمة أخرجت للناس ، تأمر

بالمعروف ، وتنهى عن المنكر داخل النفس وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلا وحكما بين الجميع ، فلا عنصرية ولا عصبية ، ولا استمساك بالذات ، بل هو انكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيدا عن أى لون من ألوان الامتهان .

عظمة القرآن نابعة من أنه لا يستجدى الشعوب أن يتبعوه ، ولا الحضارات أن تذوب فى حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهه السمع الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دسائير الحضارة ، ويعلن حربته الضارية على الظلم وامتهان الانسان للانسان ، وامتهان الانسان لنفسه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن غفن النوم البشرى ، وعن الحباثل التى ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يحاربون الله ورسوله لا لشيء الا لان الايمان بهما يقف سدا منيعا أمام أطماعهم وشهواتهم التى لا تدع قيمة الا حطمتها ، ولا مثلا أعلا الا شوخته وأذلت أهله ، والداعين اليه .

وعلى مر القرون ما زال كبار المفكرين فى العالم كله يشيدون بتلك السمة التى استعصى عليهم الجهر بها هذا الرده الطويل من الزمان .

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة فى بناء الحضارات اذا أتيح له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين جمهور المؤمنين . وهو الأمر الذى أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرسوا عليه ، وضمن لهم فى سبيل ذلك تمكينا سريعا ، وزحفا منصورا ، وعونا من جند الله يفوق كل قوة ، وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصع الالهى من القلوب حبا لا يقاوم للقرآن .

وتدعيما لذلك فقد كان القرآن دستوراً حضاريا للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاقتناع والتذكر والتطبيق السلوكى الدقيق . والدليل على أن تحويل القرآن الى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعضا السلطان ، وانما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاقتناع بعظمة القرآن ما رواه أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جده فى

أعيننا • وأوام عبد الله بن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين •
ويضيق بنا المقام اذا استقصينا أقوال الصحابة فى هذا الصدد ، ولكن
الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنية فى الانتشار
والتأصل نابعة من هذا ينبوع العريق فى الاصاله ، فلا تتعثر الحضارات
الا من جهل الشعوب بالذساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الذساتير فى
ذاتها ، أو فى اقناع الشعوب بجدواها ، وفى كلا الحالين تختلف الشعوب مع
السلطات ، وتتمرد على القانون ، ومن هنا لا تسرع الحضارة فى سيرها نحو
غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلا عن النفقات الهائلة التى يتطلبها إيقاف
التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضى الى غايتها •
أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هذه الوجهة ،
فالقرآن هو الفطرة البشرية التى لا تختلف فيها أمة ولا جنس ، فهو مقنع
لجميع الناس بجدواه وعظيم عائدته ، ودافع لهم بما يحتويه من وجوه الحكمة
الملائمة لجميع الاجناس الى الدرس والتدبر الذى لا يزيد الناس الا ايماننا
وامعانا فى استكشاف الحكم التى لا تنتهى ، ولا تضعف فى قوتها على كثرتها
الكثيرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الاسلامية الى جانب الاقتناع
به عاملا رئيسيا من عوامل السرعة فى البناء ، والقوة فى الأسس التى تقوم
عليها الحضارة ، وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تتفرغ لارتياذ آفاق
جديدة لاقامة صرح الاسلام على أرضها •

لقد أمر رب القرآن بتدبر القرآن فقال تعالى: (كتاب أنزلناه اليك مبارك
ليدبروا آياته) • ونمى على من لا يتدبرونه فقال : (أفلا يتدبرون القرآن)؟
ولا يمكن أن يكون التدبر الا مقرونا بفقه المعانى والاهداف والحكمة • ولهذا
لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معانى القرآن الا نادرا ، ولم يتهرب المخالفون
للمشريعة من الحدود المشروعة لامثالهم ، بل تقدموا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم طالبين اقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عن الاعتراف
والمشروعة للتثبت من أهلية طالب الحد ، وجدديته فى طلب التطهير من
الذنب ، حيث وصل هذا التطهير الى الموت رجما بالحجارة ، وما كان ذلك
الا لأن هؤلاء قد وصلوا الى درجة من الوعى القرآنى والاسلامى لم يصل
اليها واضعو الذساتير الأرضية فضلا عن الشعوب المحكومة بها •

تلك عظمة لا تساق اليها الشعوب بالعصا ، وانما تقوم على رعايتها
الشعوب بمحض الايمان والغيرة والعلم والتطلع الى مزيد من النجاح ، الأمر
الذى استطاع به الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه بناء أعظم حضارة
عرفها التاريخ فى ربع قرن من الزمان ، لا يكفى لاصلاح مدينة واحدة تحت
لواء دستور أرضى فى أى دولة من دول العالم ، وفى جميع أحقاب التاريخ •

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذى يفسر لنا الحوافز التى شرعها الله تعالى لحفاظ القرآن ، والتالين له فى مختلف الاوقات لا سيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الانسان فى هذا الوقت الى درجة عليا من الصفاء الذى يهيب لمن يصاحب القرآن فيه فهما لا يمكن أن يتيسر فى وقت آخر . . حتى لقد شجع النبى صلى الله عليه وسلم من يقرأ القرآن بلا فهم تذرعا الى دفعه الى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريبا لهم على أن يألوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره . وكان القرآن شرطا لصحة الصلاة ، وأفضل ما يتقرب به العبد الى ربه ، الى آخر ما هو مسطور فى السنة النبوية المشرقة . .

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن اجماع أهله حجة على الناس جميعا فى مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمى لأمة غير أمة القرآن ، وما كانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة الا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذى يتصل بالقرآن من دلائل حجية اجماع المسلمين على العالم قول الله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) . ولا خروج الى النور الا بالقرآن ، فاذا أجمعوا على باطل كانت نتيجة اجماعهم اما بقاء الناس فى الظلمات ، واما إعادة الناس من النور الى الظلمات ، وهو ما يشهد التاريخ بخلافه ، إذ أن أمة القرآن بقيادة رسولهم صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الأئمة جاهدوا الناس لانقاذهم من شؤم الظلام الى وضوح النور ، وما زال اجماعهم هكذا فى مجال الرأى والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان ذلك سلطانا من الله تعالى لهم أن يصيبوا الحق فيما كان معروفا أو منكرا عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معا أو يختلفون فلا يعدوهم الحق . وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . فالوسط : من يرتضى قوله . والشاهد : من يكون قوله حجة فى مجلس القضاء للفصل فى الخصومات ، وهو ايدان بأن الحق لا يعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وإن كانت لأمة القرآن فانما اكتسبوها من القرآن ، فلولا أن القرآن مهيم على جميع الكتب ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفيصل بين الحق الذى هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولا تلك العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله فى

الدنيا ، والتي تتمدى الدنيا الى مجلس القضاء فى الآخرة حيث يشهد رسول القرآن على شهداء الامم جميعا .

وأخيرا فان اعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التى حار العلماء والمفكرون فى الكشف عنها ، وما زالوا يكتشفون منها كل يوم جديدا ، ولا يزالون كذلك ما دام القرآن متلوا أو محفوظا فى الصدور .

وليس القول بالاعجاز فى القرآن موجها نحو العجز عن فهمه بالقدر الذى تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيدا عن نطاق الفكر الإسلامى كهذا المعنى الذى لم يقل به أحد فيقيموا حوله سوفا لثيما من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم اعجازه من هذه الوجهة التى لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلا عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء فى نهاية تلك السوق نفى الاعجاز عن القرآن بالكلىة ، نتيجة لذلك اللؤم فى الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية مما يشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الالسنه اسمه على أى صفة وأى صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات .

عظمة القرآن فى انه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذى يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الإلهى ، سهل الاستلوه ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فاذا حاول عجز عجزا كاملا ، واعتراه النقص والتخبط مهما أجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الإسلاموية الناصعة الواضح فى القرآن

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحا فى أن نسق القرآن مغاير تماما لنسق الكلام البشرى ، فما هو الا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحرا يؤثر .

قال الوليد لابی جهل : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، والله ان لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مفدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليعظم ما تحته .

فلما قال له أبو جهل : ان هذا القول لا يرضى به قومه ، فكر طويلا فلم يجد الا أن ينسبه الى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال : (سحر يؤثر) . وبطلان نسبة القرآن الى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد اياه الى تلك القوة غير المنظورة يبطن العجز عن معارضته ، وشلل القدرة

العربية - على الأقل في ذلك العصر وفي وسط الكفار الذين يتلمسون وجها للمعارضة - عن الاتيان بمثله . فهو وان لم يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلا كاملا ، بل أبقي من يستطيع السحر قادرا على مثله ، فقد زلزل بهذا الرأي عموم القدرة الانسانية على مثله ، وشهادة العدو بذلك شهادة بالاعجاز اذا راعينا جانب الكفر واللدن في الخصومة في وزن هذا القول بميزان علمي دقيق .

ومن أحسن ما قيل في تحليل اعجاز القرآن ما قاله ابن عطية في مقدمة تفسيره (٢٧٨/١) : « ان الله قد أحاط بكل شيء علما ، فاذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعبد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره ، والبشر يعيهم الجهل والتسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن في النفاة القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : ان العرب كان في قدرتها الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك . والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقع القصيدة أو الخطبة حولا ، ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا . وكتاب الله لو نزعته منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد . . . وقامت الحاجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة » .

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، فكان من المحال أن يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة من التعدي ولا يعارضوه لو استطاعوا الى ذلك السبيل .

ونقل السيوطي عن حازم في منهاج البلغاء ما يتم به كلام ابن عطية إذ قال : وجه الاعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها في العالي منه الا في الشيء اليسير المعداد ، ثم تعرض الفترات الانسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه .

وأى عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان والى أن يرث الله الارض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام في هذا الموضوع في عصرنا ضربا من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لثيمة يمارسها الاعداء من جبايرة اللؤم والحداد .

وقد فطن المرحوم الاستاذ الدكتور محمد أحمد القمراوي في الكتاب الأول من كتابه (الاسلام في عصر العلم) الى دلالة نص من القرآن على عظمة القرآن واعجازه الذي لن يزال ماضيا في الامم من وجهة نظر العلم . ذلك النص هو قول الله تعالى : (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وقد لفت رحمه الله النظر الى كلمات (الفطرة) و (الناس) و (لا تبديل لخلق الله) . فالفطرة هي السنن الالهية الثابتة التي تقوم عليها الخلقة في أصلها . والناس لفظ شامل لمن عاش ومن سيعيش على ظهر الارض من كل الشعوب والامم . وعدم التبديل يدحض زيف العلماء التجريبيين الذين يحلو لهم مهاجمة الاسلام وغيره من الأديان بالتعارض مع العلم ، وانما التعارض وقع في تجاربهم لا في السنن الثابتة التي لما يصلوا اليها بعد ، فظنوا القصور في أصل القوانين ، بينما القصور ما زال في عقولهم وتجاربهم .

ويقول رحمه الله : « ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وصف الاسلام - دين القرآن - بأنه نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهذا شيء فوق العقل البشرى أن يتصوره ، فضلا عن أن يسبق اليه في القديم والحديث ، والانسانية كلها الى الآن لا تعقل حتى امكان تحقيقه ، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدنون أنفسهم بالوصول يوما الى نظام ينطبق على الفطرة من جميع وجوهها ، والمسلمون في شغل بما ينبذ اليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذي بين أيديهم ، والنور الذي فوق أبصارهم ، والنعمة الكبرى التي من الله عليهم بها في الاسلام » .

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعا بعد أداء وظيفتها في اقامة الدليل على صدق أولئك الرسل . وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة ما بقيت الحياة ، فيه حياة القوب بالايمان ، وبه حياة الايمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهجه الامثل في تربية انسان الحضارة الامثل ، وبهذا الانسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والاحاد ، وما كانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها اما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم مردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وما كذلك معجزة القرآن التي بقيت لتحقيق مزيدا من الاتساع في قاعدة الايمان على مدى الزمان .

وحدة الموضوع في القرآن

لا أريد أن أطيل القول في موضوع تلاحم آيات القرآن من الوجهة التي طرقها الامام السيوطي ، وطرقها في عصره الامام برهان الدين البقاعي في كتابه (نظم الدر في تناسب الآيات والصور) وهو موسوعة جيدة جدا في ستة مجلدات مخطوطة ، كبار ، وطرقها حديثا المرحوم الاستاذ سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) . وانما أريد أن أحدد القول في وحدة موضوع القرآن من حيث هو قوانين فطرية تتدرج الى قانون واحد فطري من وجهة الاجتماع البشرية ، لا يمكن بأى حال أن يتبدل ولا يتغير ، بل انه يحكم التصرفات البشرية في كل مكان ، ويخضعها لسننه وتجاربه المنظورة وغير المنظورة في ثنايا القرآن ، والتي تتنافر مع أهواء الناس ، وتتفق تماما مع الوعي العقلي الموصول بوعي البصيرة والروح . أى الوعي العقلي المنفصل عن الهوى .

أقول : ان القانون الرئيسى الذى تدور حوله مواضيع القرآن الفرعية هو : أن الانسان عبد فقير مأمور محبوس في مملكة عدوه . والله معبود غنى مانح للحرية من سجن الدنيا الى حقيقة الحرية في جواره الأعلى . ولا تجد تشريعا في القرآن وفي أى باب من أبواب الفقه الاسلامى الا وهو متصل بهذا القانون الرئيسى ، بحيث تتضمن التشريعات كلها لتحقيق هذا الاصل وتحويله الى عقيدة شاملة هي (لا اله الا الله محمد رسول الله) .

ولقد جاء القرآن الكريم بهذا الاصل الفطري مؤيدا بنصوصه فروعه الاربعة . فنحن نراه يؤكد عبودية الانسان وغيره من الكائنات في نصوص أشملها قوله تعالى : (ان كل من فى السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا) ويؤكد فقر العباد بقوله : (والله الغنى وأنتم الفقراء) . وأكد أن الانسان خاضع للأمر وليس بأمر ولا حاكم بقوله : (ليس لك من الأمر شئ) . (وما تشاءون الا أن يشاء الله) . الى آخر ما ورد في القرآن من الأوامر الموجهة الى الانسان على وجه الالتزام . وأكد حبس الانسان في مملكة عدوه بقوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) . فبين أن الدنيا للذين لا نصيب لهم فى الآخرة ، وهم أعداؤنا . وأيد هذا المعنى الذى يكون شطرا كبيرا فى العقيدة بقوله : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسرا عليها يتكئون . وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

وآيات الله في النفس اذا تأملها الإنسان مجردا عن الكتب والرسالات السماوية تبينت له تلك القوانين الفطرية ، وتأكد له أن القرآن لم ينزل الا بهذه الفطرة التي هي الحلقة الالهية بقوانينها العلمية الثابتة التي يواجهها انسان العصر فاغرا فاه من الدهشة متصورا أنه على ضدها في هذه الحياة ، لكثرة ما اعتراه من النسيان ، وصلابة ما غلف قلبه من رين الغفلة ، حتى ظن الباطل حقا والحق باطلا الا من عصم الله ، وقليل ما هم .

فالاجماع قد انعقد في جميع الافهام على أن العبد : اسم خاص للملوك من جنس العقلاء ، والملوك : اسم لعائل قهره غيره فاستولى عليه استيلاء السيد على العبد ، سواء أكان القاهر له انسانا مثله ، أو شهوة من شهواته ، أم طاغوتا من الطواغيت ، أم شيطانا من الشياطين ، أم هو قوة خفية لا يستطيع أن يميزها ، ولا يتبين لها وجهها ولا جهة . . قاهرة عليا فوق كل القوى .

وتأمل الإنسان في نفسه دون تقييد بكتّاب ولا رسول يؤكد له في أصل الفطرة أنه عاقل مقهور بالتكوين والانشاء من العدم ، وإذا كان مقهورا بأصل الفطرة على هذه الصورة فقد انعدمت في فطرته المشيئة ، لأن المشيئة عبارة عن نهاية المالكية ، والإنسان قد فطر على ضدها من المملوكية التي أوضحناها ، والدليل على فقدان الإنسان للمشيئة من واقع سلوكه : أنه يشاء الكثير من الخير ، ولا يصيب الا المقدور له ، والمقسموم منذ الازل السحيق .

وإذا تحققت العبودية في فطرة الإنسان ، وتحقق عدم أهليته للملكية كان فقيرا بفطرته ، والفقر يقتضي الجبر وعدم التصرف الا بإذن وسلطان من المالك الحق .

وإذا كان الإنسان في أصل الفطرة على ما وصفنا من العبودية والفقر يعيش على تلك التبسيطة انهائلة من الارض ، ولا يستطيع النفوذ من أقطارها ، كان مقامه عليها على تلك الصورة بحكم الحبس للمحنة والابتلاء ، ولا يتصورها مملكة الا من عجز عن ادراك الفطرة ، واتخذ الهه هواه ، وادعى الحرية ، وعلا في الارض علو الملوك على مדרجة الضلال .

والبلاء الذي يمتحن به الإنسان هو اختلاف بني جنسه حول تلك الحقائق الفطرية اختلافا هائلا ، ومن وجهات مختلفة . فاختلف الناس حول الادعاء لتلك الحقائق ، أو ادعاء ضدها ، من الحرية ، والغنى ، والحاكمة ، والسيادة ، ثم اختلفوا حول الحق حينما اتفق بعضهم على أن عبودية الإنسان جبلة فطرية في أصل خلقته ، ثم اختلفوا طرائق وشواكل حول انقياسات

كلها ، لا سيما البعث الذى شكل الخلاف حوله مذهبا دهريا يأتى على حكمة الفطرة من أولها الى آخرها . فكسان بعث الرسل وانزال الكتب ضرورة لا محيص عنها ، لاقامة الحجّة ، وهداية الناس ، وحمايتهم من عواقب الخلاف حول الفطرة ، وان كان الخلاف فى أصله هو الآخر فطرة وسنة من سنن الله فى المخلق (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) . فان الكتب والرسالات كانت لقمع الجنوح النفسى تحت تأثير الخلاف الى فوضى مدمرة لا تبقى ولا تذر .

كان من أمهات المسائل التى على القرآن بفصل القول فيها : مسألة العبودية لله ، ومسألة البعث للجزاء والكشف عن الحقيقة العظمى التى اختلف حولها الانسان فى عالم الجسد المادى بما له من مقتضيات الخلاف واللدن فى الخصومة ، وتلك الحقيقة العظمى هى الوجود الالهى ، واذا كان كل الكائنات لسلطانه طوعا أو كرها ، ولذلك ارتبط اثبات البعث باثبات الوجود الالهى ، واثبات الدلائل على شمول علمه وقدرته ، وارتبط كل ذلك بأصل الفطرة على الوجه الذى بيناه فى هذه المجالة ، وكان من تلك المسائل شطر كبير من القرآن ، تبعا لجهل أكثر الناس بها ، ونسيان فطرتهم وهم يحاولون علمها ، وتستندهم فى انكارها أو الغفلة عنها (واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل وعدة عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليعين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . انما قولنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) .

فلما كان الخلاف مركزا فى الفطرة ، لم يكن هناك سبيل الى ادراك حقيقة البعث المؤكد للحقيقة الالهية العظمى الا حين يرتفع الخلاف بنقل الحياة الى صورة أخرى ذات فطرة لا خلاف فيها ، فيتحقق وجود حالة من الحياة مغايرة لتلك الحياة التى يحيها الانسان فى الدنيا ينكشف فيها الغطاء ، ويحسد البصر ، يرى ما لم يكن يراه من قبل (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) . فلا خلاف ولا تطاحن حول الحقائق .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستقصى منهج القرآن فى اثبات هذا الشطر من فطرة الانسان ، ولكننا نشير الى قسم آخر من أقسام تلك الفطرة ، هو الحرية الانسانية التى ترتبط هى الأخرى بموضوع البعث ارتباطا وثيقا بحيث تشكل معبده ومع العبودية والفقر الى الله موضوعا واحدا ، يتصل بموضوعات أخرى فرعية هى مقومات أو شواهد على صديق تلك الفطرة الالهية الحكيمه ، وتستغرق شطرا كبيرا من القرآن .

لا حرية مطلقة للانسان في هذه الدنيا . هكذا تنطق شواهد
الفطرة التي جبل الله عليها الانسان ، وقامت عليها الشواهد في شريعته مما
يمارسه نفس ذلك الانسان الذي يدعى لنفسه الحرية والسيادة والغنى وهما
وسرايا لا حقيقة له في الذات ولا في الصفات . كما قرر القرآن .

والنموذج الواضح الذي يمكن الوصول من خلاله الى هذه النتيجة
الفطرية هو : الغنى الذي ساد الناس بزعمه من جبايرة المال وملوك الارض ،
حتى ملك العبيد ، وخضعت له الرقاب ، وجمع الجنود ، واستولى على
الارض ، فما له من منازع في أمر ، ولا معقب في رأي ، مطاع على عزة وامتناع
في أنظار العامة من غير المستبصرين الباحثين عن الحقيقة في أصل الفطرة .

ويقول الامام أبو زيد الدبوسي ردا على تلك الدعوى العريضة : ان هذا
المدعى للحرية والملك ما استقر سلطانه ، وعلا مكانه بفطرته ، وانما بجنوده،
وبأس عبيده ، لا يستغنى عنهم ساعة لاستدامة ما هو فيه ، فهو يطلبهم
بهواهم ، وينيلهم مناهم ، صدقا برغبته فيهم ، والناس يطيعونه رياء خوфهم
منه ، أو طمعا فيما في يده ، وهو يطيع هوى من دونه ، وهم يطيعون من
فوقهم ، وطاعته لهوى الناس ضرورية ، وطاعة الناس له ليست ضرورية ،
لبقاء منزلتهم في أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وال ، غير أن طاعة الناس له
باجسامهم ، وطاعته لأهوائهم بقلبه فاستترت وما ظهرت الا لأهل البصائر .

ويمضى الامام الدبوسي في بيان العجيب الى أن يقول مخاطبا هذا النوع
ممن يدعون الحرية والغنى : فعصيت وجلست على سرير العبودية للعبيد ،
وكان ائتمارك للجنود ، وأحاطت بقلبك المكارة والآفات ، وطننت أنك ملك ،
هيهات . ما أنت الا مأمور حشمك ، والرعية مأمور ملكهم ، غير أن النفس
لبست عليك مقام الائتمار بمسارعتك الى الفعل قبل الأمر .

ويمضى الامام الدبوسي في بيانه العجيب الى أن يقول مخاطبا هذا النوع
من الناس فيقول : ان تصرفك في أموالك كلها متردد بين جائز مأمور به ،
وفاسد منهى عنه ، وما هكذا علامة الملك والقهر ، لكنه علامة الاذن على
الفقر . غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقائك ، وقرن بقاءك بغدائك ،
وخلق مما في الارض منفعة لك الى وقت انقضائك ، فقسم لكل عبد نصيبا
مفرزا ، كيلا يتغالبا فيتفانوا ، وجعل عليهم من أصلحهم قيما وهو السلطان،
فهم يتمتعون بالانصباء من يد القيم من أحوال طفولتهم وصغرهم ، فاذا
عقلوا سلمت اليهم الانصباء لحق الاذن في التجارة دون اثبات الملك ، فاذا
بلغوا وكملت الحالة ، ضربت عليهم الضرائب للمولى ، وخوطبوا بأدائها مدة

الحياة ليعتقوا اذا أدوا ، وسلمت اليهم للرجال الانصباة لحق الاذن تسليمه ،
ليتصور الاداء بحكم تباين الايدي ، وان لم يكن فى الحقيقة ملكا للمؤدى ،
حتى لم يملكو من أموالهم الا بمقدار ما فك الله الحجر عنهم بالعقد .

وهنا يتصل هذا الموضوع بموضوع الرق فى القرآن والشرعة بعد ما
انحسم القول فى مشكلة الملك والحرية ، والنصوص القرآنية المتعارضة فى
الظاهر ، من حيث يثبت الملك فى بعض النصوص للانسان ، ويرجع الملك
كله لله وينتفى عن الانسان فى النصوص الأخرى ، ثم يتصل الموضوع
الواحد للقرآن بالتشريعات المالية وفروعها تحقيقا للملك الالهى والقدر المتاح
للعباد بالتصرف ، ثم بموضوع البقاء الانسانى بالتكاثر بعد ما بقى المال ،
وما يتبع ذلك من أبواب التشريع ، ثم بموضوع المجتمعات الانسانية
وحضاراتها التى لا تزدهر الا تحت الامر الالهى ، ولا تندثر الا تحت التمرد
على تلك الأوامر ، وبموضوع القصص القرآنى وتوجيه النظر نحوه فى حركة
التاريخ تحقيقا لهذا الأصل الفطرى الذى تدرج حتى وصل الى قاعدة أوسع
يحتمل فيها النسيان ، ولهذا شرعت العبادات والذكر لدوام التذكر .

ولا يخلو موضوع من موضوعات التشريع من دليل واضح على تلك
الفطرة الثابتة . وخير ما يمكن أن ندرك من خلاله موضوع الحرية الانسانية
هو موضوع الرق وما يتصل به من تشريعات . اذ أن الرق والعبودية لما كانا
من فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، وأن الملكية للانسان فى الدنيا
ما هي الا ابتلاء ينال الانسان من خلالها ومن خلال الأوامر المتصلة بها حقيقة
الحرية ، فقد شرع الله من التشريعات السلوكية فى هذا الصدد ما تتضح به
تلك الفطرة لكل ذى عينين .

يملك الرجل أخاه ملك يمين بسبب مشروع هو أن يكون أو أحد
أصوله ممن تمردوا على دعوة العبودية لله بالسلاح فأسروا فى الحرب الدينية،
ولسكن رحمة الله اقتضت أن يشرع له وجه من وجوه الحرية هو (المسكاتية)
والسكاتية باب واسع فى الفقه الإسلامى ، يشرى العبد حريته من سيده
بمال معلوم ، ولما كان العبد لا يملك ، فقد ذهب اليد إلى أن يأذن له فى
العمل بجزء من المال احسانا ، ويتصرف العبد بقدر ما انفك عنه الحجر ، كأنه
مالك وليس الا عبدا ، فاذا أدى عتق ، واذا عجز بقى عبداً ومن هذه القضية
التي يمارسها الانسان بأمر الله يمكن الفصل فى قضية الحرية الكبرى على
المستوى الفيسى ، بعد دراستها على المستوى المشهود .

فالحرية الممنوحة من الله تعالى لعباده الذين أدوا ما وجب عليهم فى دار
الابتلاء تشمل الذات فى الدنيا والصفات فى الآخرة جميعا ، ويشهد لذلك

قوله تعالى عن هؤلاء الاحرار في دار النعيم : (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) . فما يريد هؤلاء الاحرار يتحقق بمجرد المشيئة ، وتحقق المراد بمجرد المشيئة وان كان حقا لله فقد اكرم الله به عبده المطيع بتكوين ما يشاؤه .

فاذا كانت الحرية في الدنيا هي خلاص حق الحرفي نفسه وماله ، فما لأحد على الفائز بالجنة حق في شيء من أحواله ، فيكون عبدا في ذاته من حيث التكوين ، عتيقا في أفعاله من حيث الانعام والتكريم . وهكذا يكون مثل ما في التشريع ، وصلا بين حياتين يدرك المستبصر من خلالهما كسل أسرار الفطرة التي لم يخرج عنها القرآن في أى موضوع فرعى من مواضعها . ومن هذه النافذة يمكن أن تتصل موضوعات القرآن في وحدة متماسكة لا خلل فيها .

وجانب آخر متلاحم مع هذا الأصل الفطري الذي دار حديثنا حوله ، ودارت حوله الكثير من آيات القرآن الكريم هو : العدل باعتباره الفطرة التي بنى الله تعالى عليه هذا الكون المنظور وغير المنظور ، وردنا من خلال تلك الفطرة الى موضوع المعبود الحق الذي تقوم على أساسه الحضارة القرآنية ، والدعوة العالمية الى الاسلام ونجاحها اليقيني من حيث تعثرت خطا الدعوات في عصرنا الحاضر حينما آخلوا بتلك الفطرة .

وأصل هذا الجانب الرئيسي : أن الله عزت قدرته علق بقاء الأنفس بالمال ، وعلق بقاء الجنس بازدياد الذكر بالأنثى ، فانت ترى أن اشتباب البقاء والتكاثر هي شهوات الطبيعة التي فطر الله الناس عليها ، لتكون تلك الشهوات سائقة الى أسباب البقاء ، ثم أعلن سبحانه أنه ما خلقهم للاستغراق في تلك الشهوات ، بل ليوحدوه ويعبدوه بأمره على خلاف الطبع ، ولهذا نرى القرآن يدعو الى العمران ويشجع النكاح ، وينهى على من يحرم الطيبات من الرزق ، وفي الوقت نفسه يمقت الترف والاغراق ، ويدعو الى ايثار الآخرة على الأولى ، وعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى ، في مقابلة تعليق الحاضرة على الشهوات والهوى . وهنا كان الابتلاء الذي لا ينجو الانسان منه الا بالعدل واقامة الموازين الدقيقة في شئون المال والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء .

عدل الانسان مع نفسه ، فلا ينساق الى الترف في الجسد والعقل ، وعدل الانسان في علاقته بربه ، فلا تطفئ عليها الدنيا بشهواتها ، ولا تطفئ العبادة على العمران ، وعدل الانسان في علاقته مع غيره من بنى جنسه ، ابقاء على الاخوة الضرورية لنجاح الأمة في شريعة الجهاد في سبيل الله ، وقد

أفاض القرآن في هذه المواضيع ، وربطها بما أشرنا اليه من مواضيع في شطر كبير جدا من آياته .

وغاية العدل : أن يصل الانسان الى أن كل سلطان عليه غير سلطان الله فهو شرك وضلال ، وكل عبودية لسواه ذل ، وعلى الانسان أن يوفق بين ارتباط مصالحه الدنيوية بغيره من الناس وبين العبودية لله ، فلا يمنح الانسان أكثر من حقه في أنه عبد مسخر للعمل وتبادل المنافع مع غيره ، ولا يتحدث عن الحائق الأعلى حديثه عن العبيد ، ولا يخلط بين الفاني ومناحي الحياة .

وعلى هذا النهج تخلص عقيدة المؤمن من الشرك الخفي والجلي ، وعلى العكس اذا اختلت موازين العدل بين الانسان ونفسه ، فمال الى الشهوات ، فانه حينئذ يصبح انسانا مختلا في توازنه بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ويضعف أو ينعدم شعوره بسلطان الله وقهره ما دام مقهورا للشهوة ، مدفوعا بسلطان المال ، ومن هذا تكون القوضى ، ويتحطم بناء المجتمع باختلال نظام الأسرة .

فالانسان لا يصبح سويا صالحا لممارسة شعائر الايمان الحق كما يريد الله تعالى الا اذا عدل بين مطالب جسده ، ومطالب عقله ، ومطالب روحه . فمطالب الجسد : ابقاؤه حيا متكاثرا دون سرف ولا تقتير ، ومطالب العقل : النظر في العلوم والمعارف التي تؤدي الى رقي الانسان وتساميه عن وحل الانحراف ، ومطالب الروح : وصلها عن طريق العبودية والعبادة بمصدر الوجود الحق ، واسناد التوفيق اليه ، والبراءة من الحول والقوة ، والفرار اليه في كل المهمات .

وظلم الانسان لنفسه في جانب من الجوانب الثلاثة ينتهي به الى مرتبة الانعام حينما يعبد هواه ، والى الشرك حينما يصبح الظلم عظيما بالغفلة عن الله ، وعن مراقبته ، ومراقبة انعامه ، ونسبة شيء من ذلك الى العبيد باللسان أو بالوجدان أو بالعمل .

ولقد بث الله تعالى تعليمه للمؤمنين وحدة الموضوع القرآني عن طريق العدل في المطالب البشرية الفطرية في مواضع كثيرة من أظهارها أو إئثار سورة الروم .

فقد افتتحها الله تعالى بتذكير المؤمنين بأن النصر من عند الله ولكنهم لا يعلمون ، لانهم يغفلون عن مطالب الروح فلا يعلمون الا ظاهرا من الدنيا . ثم أرشد الى منهاج الوفاء بمطالب العقل والروح ، ووجه الانتظار الى التفكير في أنفسهم وفي خلق السموات والأرض بالحق لعاقبة الجزاء ، والى دراسة تواريخ

الأقدمين من جبابرة الكفر ، وكيف انتهى بهم الحال الى ذل مقيم • ثم وجه
الأنظار الى استمرار خط الحياة بعد الموت ، وبسط القول فى الثواب
والعقاب ، وأدمهم بمادة التفكير الموصلة الى حقيقة الايمان والتوحيد ، وكيف
أن الملك الحق يفعل ما يريد •

ثم انتهى القول الكريم الى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهه
نحو عناصر الفطرة فى هذا البيان الحكيم فقال تعالى قولاً فصلاً فيه كل العلم
لأهل البصائر والذكرى :

(فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل
لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون • منيبين اليه واتقوه
وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين • من الذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون - ٣٠ - ٣٢) •

وهذا هو الموضوع الواحد الذى شرحه القرآن ، وعرضه على مختلف
المناهج حتى يستحق وصف الله تعالى له بأنه كتاب البشرية كلها ، جاء به
رسول الله الى الناس كافة فى كل العصور والأجيال •

فسبحان الله الذى أقام بالعدل والقسط والميزان هذا الكون الهائل ،
وأطلق بالعدل حركات الكواكب ، ودرجات الحرارة والبرودة ، وموج المحيط ،
وهدير السحاب ، وسوق الماء ، واضطراب الارض بالنبات ، وكل سر الله فى
خلقه منظور ومحسوس ومغيب عن مدارك الانسان ، وربط بين العدل
والفطرة ، وربط بين الفطرة والقرآن ، وأنزله كتاباً واحداً الموضوع •• كتاب
الهدى والتوحيد والفطرة •

ترتيب القرآن

ترتيب النزول :

يختلف ترتيب القرآن في النزول عن ترتيبه في المصحف اختلافا كبيرا ومنشأ هذا الاختلاف هو اختلاف الهدف المقصود من كلا الترتيبين .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل متجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين سنة ، على حسب الخلاف في إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة .

والذي يلقي الضوء على حكمة انزاله مفرقا في هذه المدة الطويلة ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر . لقالوا : لا ندع الخمر أبدا . ولو نزل : لا تزنوا . لقالوا : لا ندع الزنا أبدا » . وإذا تدبرنا المناسخ والمنسوخ من مكي القرآن تبين لنا مدى علم عائشة رضي الله عنها بحكمة ترتيب النزول .

فالمقصود الرئيسي هو مراعاة حاجة الدعوة إلى الدين الجديد من الوجهة التربوية الإلهية الخالصة ، والتدرج بالناس شيئا فشيئا حتى يتم المراد من اكمال الدين ، وتام النعمة ، دون أن تكون هناك عوائق نفسية تعوق الإنسان السوي عن متابعة التنزيل ، وتدبر معانيه ، والاقتناع بمراميها ، والعمل بما تضمنته من أحكام .

وآية ذلك أن الفترة المكية على طولها لم تكن التعاليم القرآنية فيها متجهة إلا إلى بناء العقيدة وترسيخها في أعماق الوجدان ، ولم يشرع من العبادات فيها إلا الصلاة ، باعتبارها تجديدا دائما ومتكررا لقوة العقيدة وفاعليتها ، وما ذاك إلا لأن العقيدة هي قوة الدفع للإنسان المؤمن نحو الطاعة المطلقة لله في الأمر والنهي ، وآية صدق هذا المنهج التربوي : ما أنجزه الرعيل الأول في المدينة من أعمال عظيمة ، يعجز عنها إنسان ذو عقيدة لا تتسم بالأصالة والرسوخ والعق واليقين .

فالقرآن على منهج النزول هو منهج دعوة لتأسيس دين بين قوم لا يدينون بالحق ، ومنهج تربوية لأمة مختارة ومصطفاة لنشر هذا الدين

بمختلف الوسائل المشروعة للدعوة ، ومنها الجهاد بالسيف الذى نسخ كل الوسائل السابقة ، ومنها الصبر على ما يصيب الدعاة ، والدعوة باللين والحسنى .

ومن اسباب تفريق القرآن فى النزول ما ذكره الله تعالى ردا على الكفار (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . اى : كما أنزلت الكتب على من قبله من الرسل . فأجابهم الله تعالى بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم : (كذلك أنشئت به فؤادك) .

وتثبتت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم فسره أبو شامة بقوله : ان الوحى اذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل اليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان ، لكثرة لقائه جبريل .

ولا يخرج هذا التعليل عن المصلحة العنيفة للدعوة الناشئة ، ولكن فى شخصى الداعى الأعظم ، بما يتناسب مع المهمة العظمى التى أمر أن يصدع بها ، ويجاهد الامم من أجل ارساء قواعدها . وفى قوة الداعى قوة لاتباعه ما فى ذلك جدال .

كما أن هذا المنهج النزولى كذلك فيه تثبيت لأفئدة المؤمنين ، بانارة تطلعاتهم الى الوحى ، والى ما ينزل به حلا لمشكلاتهم ، وفصلا فى قضاياهم ، حيث كان يتوقف فيها الرسول كثيرا حتى ينزل فيها قرآن ، وفى ربط الوجدان والعقل بالوحى على هذه الصورة مذاكرة نفسية للعقيدة أبلغ من كل كلام فى موازين التربية التعليمية فى أسنى قيمتها ونجاحها .

وقالوا كذلك أن تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم بانزال القرآن مفترقا : أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق عليه ليثبت عنده حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان قارئاً كاتباً .

وقالوا : ان القرآن فيه الناسخ والمنسوخ ، ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفترقا .

وقالوا : ان منه ما كان جوابا لسؤال ، وما كان انكارا على قول أو فعل ، فنزله جبريل بجواب كلام العباد وأفعالهم ، وقد فسر ابن عباس بهذا المعنى قوله تعالى : (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تأويلا) .

ولا تخرج هذه الأقوال الثلاثة كذلك عن مصلحة الدعوة في حفظ النصوص القرآنية التي تعتبر دستور الدين الجديد ، وفي الاستجابة للمتطلبات الواقعية لتربية خير أمة أخرجت للناس ، أقرارا لما يتفق مع قوانين الفطرة الثابتة ، وتقويما لما انحرف عنها بتأثير الهوى وتقاليده الجماعة الموروثة التي لا تخضع للحق من حيث هو حق .

ومن أهداف نزول القرآن مفرقا : تجدد الحوافز التي قررها الله تعالى للدعاة في كل العصور والأقطار ، وللدعاة الأوائل بصفة خاصة ، إذ كان هناك حوافز للدعاة لا يظهر أثرها إلا في الدار الآخرة ، كالصبر على الأذى ، وتوفية الصابرين أجرهم بغير حساب ، وجزاء الشهداء عند الله ، وما شابه ذلك من الحوافز . وكان هناك حوافز تبشر المؤمنين الدعاة على قتلهم وضعفهم في المال والسلاح بالانتصار واذلال جيروت العدو ، حتى يكون ذلك أدعى إلى صلابة العزائم ، والاصرار في المضي على الطريق ، لا سيما وأن تلك الحوافز كلها قد تحققت من الوجهة القرآنية ، فانعكست في السنة النبوية تعميقا وتوسيعا لمفهومها ، بالبشريات التي زفها الرسول صلى الله عليه وسلم لاتباعه بالانتصار على مملكة فارس ، وبدوام النصر والفتح ما عاشت شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كان الرسول وأصحابه يلوذون بالصبر على الأهوال في مكة ، فانزل الله تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) . قال عمر بن الخطاب : فقلت : أي جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر ، وانهزم المشركون نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلتا بالسيف ويقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) . فكانت ليوم بدر .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد) . فهذه السورة مكية ، وقد نزلت والمسلمون في كرب الاضطهاد والحصار الاقتصادي الرهيب تبشرهم بالفتح في صورة احلال البلد الحرام لقائد الدعوة صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر أثر هذا الفتح وذلك الحل في قوله صلى الله عليه وسلم عن مكة : « أحلت لي ساعة من نهار » .

بل لقد كان هناك حافز أشمل من كل تلك الحوافز ، وشد قوة في رفع الهمم ودفعها إلى اقتحام أشق العقبات ، وذلك في آية النحل التي تبشر تلك القلة المستضعفة في مكة بملك عظيم ، وعلاقات دولية واسعة ، شرع لهم عند قيامه ألا ينقضوا العهد أيتار للمال أو القوة في قوله تعالى : (ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخلون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) .

ومع ذلك فلم تفقد هذه الآية فاعليتها في مكة ، بل كان التدريس على تحقيقها ماضيا في تنفيذها عند بناء التجمعات الاولى ضد الكفر ، على ضيق نطاقها ، ولكنه وسيلة تعليمية ناجحة كل النجاح على أى حال ، عمقتها السنة في التبشير بالفرج والنصر .

لم يكن من سواء السبيل اذن أن ينزل القرآن جملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤسس دعوة الرسالة الخاتمة ، ويقيم صرح الدين الشامل للناس جميعا ، ويربى جيلا فريدا من فقهاء القرآن ، وحفاظ الشريعة ، وشيوخ الدعوة ، وفرسان الجهاد ، والمعلمين الاثبات لكافة الأجيال .

وكان من عيون الحكمة أن ينزل القرآن هكذا منجما يجمع بين الحوافز وقوى الدفع الاخرى ، كما يتيح الفرصة الكاملة للدعاة الأوائل أن يستوعبوا القرآن حفظا ودرسا وسلوكا ، وتربية للضمائر والقوى الوجدانية الاخرى اللازمة لنجاح خير أمة أخرجت للناس .

وفي انزاله منجما كذلك دليل لا يرقى اليه الشك على أن القرآن كلام الله ، وليس من كلام البشر . وذلك : أن السورة كانت تنزل بمكة الا آيات منها ، كسورة الأنعام ، قال ابن عباس : نزلت بمكة ، الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة : (هذان خصمان ٠٠٠٠) الآيات الثلاث . وسورة السجدة أيضا نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة هي : (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ٠٠٠) الآيات الثلاث . وسورة الزمر نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة في وحشى قاتل حمزة : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ٠٠٠) الآيات الثلاث .

وجه دلالة هذا التفريق في النزول على أن القرآن كلام الله وليس كلام بشر على الإطلاق : أن عقلا بشريا مهما أوتى من القوة والحفظ والاحكام لا يستطيع أن يذكر موضع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات طويلة ، فيضعها في مكانها ، بحيث تلتحم مع سابقاتها ولاحقاتها فى اللفظ والمعنى والسياق ، ولو أن عقلا اتقن ذلك فى حالة واحدة ، فلن يستطيع أن يحكمه فى حالات كثيرة وفى سور كثيرة بحيث لا تشذ حالة واحدة عن قاعدة الاحكام المشهودة فى كتاب الله الحكيم .

لقد حدثت تلك التجزئة فى النزول باستثناء آية وآيات من سورة تنزل بعد نزول أجزاء تلك السورة بسنين طويلة - حدث ذلك فى سورة البقرة ، والأنعام ، والاعراف ، والأنفال ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، والاسراء ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ،

والحج ، والمؤمنون ، والفرقان ، وتسع وعشرين سورة أخرى ، ومع ذلك فقد وضعت الآيات التي تأخر نزولها من تلك السور في أماكنها ، متلاحمة تمام التلاحم مع سوابقها ولواحقها ، فلا تنافر بينها في المعنى ولا في جرس الكلام ، مما يحقق ويؤكد ما جاء في السنة مجمعا على صحته من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضع تلك الآيات وغيرها من آيات السورة التي كانت تنزل نجوما متتابعة في أماكنها بتوقيف من الوحي ، إذ كان يقول صلى الله عليه وسلم لكتاب الوحي : ضعوا هذه الآية أو الآيات بين آية كذا وكذا من سورة كذا .

ولنأخذ مثلا واحدا من سورة الزمر للدلالة على صحة هذا القول . فهذه السورة نزلت بمكة الا قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم) الى (من قبل ان ياتيكم العذاب بغته وانتم لا تشعرون) . فانها نزلت بالمدينة ووضعت في مكانها فتلاحمت مع الآيات تلاحما عجيبا لا يكون ابدا الا عن توقيف من الوحي وصار وضع الآيات بعد ذلك على الوجه التالي :

(او لم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون . قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم . وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان ياتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم من قبل ان ياتيكم العذاب بغته وانتم لا تشعرون . ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين) .

فنحن نرى ان بسط الرزق والتضييق فيه مظنة الاسراف على النفس ، ففي حالة البسط بالترف ، وارتكاب الموبقات ، وفي حالة الضيق بالعدوان للحصول على المال ، فاقتضت الرحمة الالهية فتح باب التوبة للمسرفين وتحذيرهم من التسويف بها خشية حلول العذاب المفاجيء ، فيندم المذنب لتفريطه وسخريته بالامر الالهي .

فهل ترى تلاحما ابداع من هذا التلاحم ؟ ولكنه نبي ورسول ما ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

بل انك لا تعلم التلاحم بين الآيات دون أن توضع تلك الآيات الثلاث بالمدينت في مكانها . فبسط الرزق واقتاره داعيان الى الندم والحسرة حينما ينحرف الانسان بدافع منهما أو من أحدهما عن الصراط السوي ، ولهذا عقب الله قوله في بسط الرزق واقتاره بقوله : (ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون) . وذلك شاهد عظيم لمعظمة الترتيب القرآني على أي وجه ، وتفسير

لقول عائشة رضي الله عنها لأحد المسلمين : « لا يضررك أية آية قرأت قبل » ،
وتفسير لقرار النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حينما سمعه يقرأ من هذه
السورة وهذه السورة بلا ترتيب . ولكن الترتيب على وجهيه النزول
والمصحف أحكم وأبلغ وأدخل في باب الإعجاز لذى بصيرة واعية .

ومن عجيب ما قاله سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ونقله عنه
الامام السيوطي في الاتقان : ان ربط آيات القرآن على ترتيب نزولها
تكلف لا يليق . اذ أنه يشترط في حسن الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط
أوله بآخره ، فان وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط
ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه الا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن
الحديث فضلا عن أحسنه ، فان القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في
أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه
ببعض .

وقد رد الشيخ ولي الدين الملوي عن هذا الزعم بقوله : قدومهم من قال :
لا يطلب الآية الكريمة مناسبة لانها على حسب الوقائع المفرقة . وفصل
الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا .

ونقول : ان استعراض آيات القرآن حسب ترتيب نزولها هو عين
الحكمة ، كما قلنا آنفا ، ونزيد هنا أن نعرض نموذجا واحدا يقيس عليه
الباحث عن حكمة الترتيب وأسراره في ترتيب النزول ، وذلك من الآيات
الأولى في النزول .

فأول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (العلق)
والمجموعة الأولى من آياتها التي أنزلت عليه أولا هي من أولها الى قوله تعالى :
(علم الانسان ما لم يعلم) . ولما كانت هذه السورة مكية ، وقد تأخر نزول
باقيها عن نزول سورة المدثر فاننا سنكتفي بالآيات الأولى منها ، ثم ننظر
حكمة ترتيبها مع ثمانية السور نزولا وهي سورة المدثر ، ومع ثالثة السور
نزولا وهي سورة (القلم) التي نزلت بمكة الا قوله تعالى : (انا بلوناهم)
الى (يعلمون - ١٧ - ٢٣) وقوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك) الى (الصالحين
- ٤٨ - ٥٠) ومع رابعة السور نزولا وهي سورة (المزمل) المكية النزول ،
بما عدا قوله تعالى : (واصبر على ما يقولون) الى (ومهلهم قليلا - ١٠ - ١١) .

فلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعده الله تعالى لأعظم رسالة
من حيث عمومها وشمولها ، وما شرع لها من وسائل الدعوة ، ومنها الجهاد
بالسيف والعلم ، وما قامت عليه من أساس التوحيد في العقيدة ، فقد

اقتضى هذا التكليف الهائل علما ومعرفة من معين آخر غير المعين الذى يتلقى عنه الناس علومهم ومعارفهم ، هو المعين الالهى الغيبى الذى يفيض على من أسلم وجهه لله ، فيقوم من شطط العقل ، ويحد من شطط الوجدان ، ويصحح ما فى قضية الايمان بالغيب من انحرافات سيطرت على عالم الشرق الأقصى ، أى : هو المعين الذى يجب أن تقاس به معارف الناس ، ولا يصح أن يقاس هو بمعارف الناس ، ويجب أن تدور حوله الأفكار تلتمس فيه الحق ، ولا يجوز أن يدور هو حول أفكار الناس ليحقق ظنون العقل ، وأوهام الهوى .

لقد أمر الله رسوله ، وكلفه أن يعلم الناس أن الله هو مصدر العلم ، والموفق الى صحيح المعرفة ، فهو خالق الانسان ، ومعلمه ما يخطه بقلبه ، وما يعلمه بعقله ، مما هو متاح له من وسائل المعرفة المنظورة ، ومما لم يتح له من وسائلها الغيبية التى لا ينالها الا بعد أن يؤمن بالغيب ، ويصل روحه ووجدانه بالغيب .

وسواء مضينا مع السورة لنعلم منها نموذجا من ضلال الانسان الفكرى حينما يطفى اذا استغنى ، بدلا من أن يشكر ، حتى يبلغ من طغيانه اذا استغنى بالماديات أن ينهى الناس عن دعاء الله ، ليصدهم عن الايمان بالغيب ، ليجعل من نفسه الها وطاغوتا يحكم جهلاءهم ، فان السورة تتلاحم بجزئها الأول وجزئها الثانى مع سورة المدثر ، فانية سور القرآن نزولا ، مؤيدة ما قلنا من أن ترتيب النزول يساير حركات النفس الانسانية وتفاعلها مع الدعوة الجديدة بالدفع الى الامام ، أو بالتقويم عند الانحراف ، الى جانب الاهداف الاخرى التى شرحتها .

كيف تفاعلت النفوس اذن بهذا الاعلان القرآنى الجديد الذى تلقاه الرسول الاعظم ؟

همس هنا وهناك بين أرجاء مكة ، تعليقا على ما حدث بالأمس القريب لمحمد بن عبد الله فى غار حراء ، حيرة فى تفسير هذه الظاهرة فى داخل الرسول العظيم . وفيما يجب أن يعمل بعدها ، والزوجة الوفية الرحيمة الزكية خديجة بجواره تبعث فى قلبه الطمأنينة والامل الكبير . وكان لابد لهذه الحيرة من نهاية ، ولهمس الناس من قول فصل ، ولهذا نزلت سورة المدثر تضع الرسول أمام رسالته ، وتعلن حكما فاصلا أمام زعماء قريش الذين بدأوا يهمسون بمس من الجن أصاب الرجل الأمين محمد بن عبد الله ، وتحدد الخطوط العريضة للرسالة فى : الانذار ، وتكبير الله ، وهجران الأصنام ، وطهارة المظاهر والباطن ، والصبر على الأذى .

وكان انذار الرسول لقومه ، وبدأت قریش تنقسم على نفسها ، بين قلة مستعدة لتقبل الايمان الغيبي ، وكثرة لا صقة بالمادة وحدها ، بدأت تعلن جنون الرسول العظيم ، وتأخذ من جنونه منطلقا لصد الناس عن دعوته ، وإعداد العدة لاضطهاده واضطهاد القابليين لها .

ولم تكن تعليقات القرشيين على الدعوة الجديدة بجنون الرسول بدعا بين مناهج الفكر والفهم للرسالات السماوية ، فتلك سمة لازمة لأولئك الذين غلفت قلوبهم بأهوائهم ، ردها القرآن في قصصه عن الأمم الغابرة مع رسلها .

وكان الرد الطبيعي أن يسجل القرآن حقيقة أمر الرسول ، وحقائق هؤلاء القرشيين المارقين ، التي تعتبر امتدادا لمنطق الكفر والاحاد في كل زمان . فنزلت سورة القلم ، تحقق كمال عقل الرسول ، وتشيد بخلقته العظيم ، وتعدده بظهور الحق على الباطل ، وترده الى علم الله بالمهتدين والضالين دون الرجوع الى علم البشر ومقاييسهم ، وتحذره من طاعة هؤلاء الأذعياء الذين غلف قلوبهم حب المال والبنين .

ثم ماذا ؟

آمن بالرسول جمع قليل ، وثار في وجهه غاصفة هائجة من العداة والمقاومة العنيفة من شأنها أن تفت في عزيمة أقوى الرجال ما لم يكن مؤمنا بقوة قاهرة عليا ، هي أقوى من كل القوى البشرية مجتمعة .

ومع العناية الرحيمة الفائضة من الله تعالى على الرسول فقد وجهه سبحانه الى منهج تربوي جديد ، من شأنه أن يجعل الانسان على صلة دائمة بمصدر القوة القاهرة العليا ، مستعدا للوفاء بأعظم الأعمال ، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال . فنزلت سورة المزمل ، وفي صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذين ألقيت على كواهلهم التبعات الأولى للدعوة ، ولكل من يريد الخطوة بعون الله ونصره مدى الزمان .

وهذا المنهج ينحصر في قيام الليل ، وترتيل القرآن في صلاة الليل ، استعدادا للقول الثقيل الذي يوشك أن يتوالى القاؤه على الرسول ، والهجر الجميل لأهل الأوثان ، والصبر على ما يقولون ، الى آخر ما في هذه السورة من أوامر تتسق تمام الاتساق مع سير الدعوة .

وفي كل تلك السور الأولى زاده الله معرفة بأصول التوحيد وتاريخه ، وطبائع الكفر ومنطقه ، وذلك تلاحم وحكمة في الترتيب لا يردها عقل

مستقيم ، ودليل على ثراء هذا الترتيب النزولى بالعلوم والمعارف الاسلامية المتلائمة مع شمول الدعوة وصلاحيتها لكافة العصور والأجيال .

بين ترتيب القرآن فى المصحف وترتيب النزول :

ما رأينا ولا سمعنا بكتاب ألفه عبقري فى زمانه يعطيك من مراحل تأليفه وتسويده منهجاً عالمياً ومنه فى نهاية تبييضه وإخراجه منهجاً عالمياً آخر ، اللهم الا أن يكون مؤرخاً ، أو عالماً أو تجريبياً من علماء الاجتماع أو الفيزياء ، ثبت تجاربه ومشاهداته أو الأحداث التى يقع عليها على مدى طويل من الزمان ، ثم يضع على أساس تلك المشاهدات نظرية أو قانوناً علمياً ، أو قاعدة من تلك القواعد التى تسمى فلسفة التاريخ . ولكن هذا المؤلف أو ذاك يستبعد الكثير جداً من مراحل إعداد كتابه لما شابها من خطأ أو ارتجال ، أو انعدام للجدوى والفائدة .

ومع ذلك فإن هذا الكتاب أو ذاك رغم الجهود المضنية التى عاناها المؤلف ، لا يمكن بأى حال أن يكون وافياً بحاجات العصور والأجيال ، كما أنه لا يمكن أن يكون حقاً غير قابل للنقض والتغيير ، فما أسرع ما تختلف المشاهدات فى المعامل وتتغير القوانين العلمية ، وما أسرع ما يثبت قصور النظرية الاجتماعية ، أو تصادمها مع غيرها فلا يستقر الناس على رأى ، ولم يستقروا منذ مطلع التاريخ حتى الآن .

وذلك لأن الانسان مفرداً أو مجتمعاً مهما أوتى من قوة الفكر لا يمكن أن يحيط بالفطرة وقوانينها حتى يصلح أن يكون مرشداً لها ، وهادياً من الضلالة . إذ أنه لا يحيط بالفطرة علماً الا خالقها سبحانه ، ومن الفطرة ألا يحيط بمقيد هر الانسان بمطلق هو سر الله فى خلقه ، وكل ما يعلمه الانسان من تلك الفطرة أجزاء تقل أو تكثر ، ولكنها لا تصلح منهجاً عالمياً للسلوك ، ولا حتى منهجاً محلياً غير قابل للنظر ، اللهم اذا كان ترجمة أمينة لمقاصد فطرة الله فى خلقه ، وهو عمل لا يتهيساً الا لمن يفقهون عن الله ، (واتقوا الله ويعلمكم الله) .

والقرآن وحده هو الكتاب الذى يعطيك من كل وجهة من وجهتى ترتيبه منهجاً عالمياً جامعاً مانعاً محكماً لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فهو فى ترتيبه النزولى كما قلنا . منهج لتأسيس دعوة ، وأسلوب اقناع بعقيدة ، وطريقة تبشير وإنذار ، ودحض كامل لمنطق الاتحاد المريض وهو فى ترتيبه المصحفى أسلوب حياة ، وبناء حضارة ، ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه ، أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون

هداية للمؤمنين ، من حيث كان الترتيب النزولى هداية للمؤمنين ، وتدرجا بالكافرين أو اللادينيين الى مرتبة الايمان ، وهو فى كلا الحالىن نبع لا يفيض للأسرار والعلوم .

فاذا ارتاد الدعاة مجاهل الاحاد عاملوا أهلها على مقتضى ترتيب النزول فاذا ثاب الناس الى الايمان وضعوا بينهم وجهه الآخر وهو ترتيب المصحف ليكون أسلوب حياة ، ووسيلة بناء لجحفل جديد من جحافل الدعوة والانطلاق على وجه الأرض تحت راية الايمان .

ومما يلقي الضوء على كلا الترتيبين : أن نحاول تفهم حديث الله عن كتابه فى أول كل منهما . وفى مفتتح الترتيب النزولى نجد الحديث عن القرآن فى سورة المدثر دفاعا عنه ضد المعرضين عنه ، والذين نسبوه الى السحر أو قول البشر ، ثم تقرير يؤكد أنه تذكرة . وذلك فى قوله تعالى :

ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر - ٢٣ - ٢٥) . وقوله : (كلا انه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا ان يشاء الله هو اهل التقوى وأهل المغفرة - ٥٤ - ٥٦) .

ويصور القرآن نفور الكافرين من القرآن والرسول بقوله تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنقرة . فرت من قسورة - ٤٩ - ٥١) .

وفى سورة القلم ، ثانية سور القرآن تناولوا للقرآن حسب ترتيب النزول يمسى الحديث مع الوليد بن المغيرة أيضا فى قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم . ان كان ذامال وبني . اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين . سنسبه على الخراطوم - ١٣ - ١٦) . وفى نهاية السورة يقول تعالى : وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . وما هو الا ذكر للعالمين - ٥١ ، ٥٢) .

وفى مفتتح الترتيب فى المصحف نجد الحديث عن القرآن مختلفا تماما . وفى أول سورة البقرة يقول الله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب - ٢ ، ٣) . وبعد قليل يقول الله تعالى : (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولكن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها ائناس والحجارة أعلت للكافرين - ٢٣ ، ٢٤) .

فالحديث عن القرآن فى أول الترتيب النزولى يتجه فى سورة المدثر

الى تسفيه قول الوليد بن المغيرة فى القرآن : (ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر) • ثم ينمى على مثل الوليد الاعراض عما فى القرآن من تذكرة ، ويصور هذا الاعراض بنفور الحمير النافرة من الأسود • فكان الاعراض قد جاء بعد نظر وكشف لحقيقة القرآن ، وهو الأمر الذى حدث من الوليد حين سمع القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتامله تأملا واعيا ، ففس من قلبه منطقة الاعجاب والقرب من الايمان ، وقرر أنه ليس قولاً من أقوال البشر ، فلما زجره أبو جهل ، وذكره الاستقراطية القرشية عاد وفكر وقدر ثم قال ما قال معرضاً عما مس قلبه من حنين الى القرآن •

فكان القضية ليست قضية الوليد ، وانما هى قضية أمثال الوليد ، وهم كثيرون فى كل عصر • قضية الالحاد والاعراض عن الذكر ، وأسبابه ودوافعه ، فالوليد هو التجسيد الواقعى لعناصر الالحاد ، والذى اجتمع فيه منطق الكفر والعناد ودوافعه جميعاً ، ولا بد أن يوضع هذا التجسيد الواقعى أمام المؤمنين فى مطلع الدعوة حتى يكون نموذجاً يقاس عليه مثله على مدى الزمان الطويل •• والا فما قيمة فرد من خلق الله كالوليد حتى يحظى بهذا القدر من الآيات فى سورتي المدثر والقلم ؟!

ففى سورة المدثر يقول الله تعالى عن منطق الكفر والعناد والاعراض فى صورة الوليد بن المغيرة : (ذُنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً • وَجَعَلْتَ لَهُ مَالاً مَمْلُوداً • وَبَنِينَ شُهُوداً • وَمَهَلَتْ لَهُ تَمْهِيداً • ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ • كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدَ سَازِغَةً صَعُوداً • إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ • فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ نَظَرَ • ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ • ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ • فَكَانَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ • إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ • سَاصِلِيهِ سَقَرُ - ١١ -) (٢٦) •

وفى سورة القلم يمضى القرآن مع الوليد فيقول تعالى : (وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ مِثْنٍ • هَٰذَا مِثْلُ مِمَّا بَنِمْنَا • مِنَّا لِّلْغِيْرِ مَعْتَدٌ آثِمٌ • عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ ذُنُوبَهُ • إِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ - ٨ - ١٥) •

وهنا تتضح الصورة ، وتتألق الحكمة ، فالتعزز بالمال والبنين والعشيرة والجاه ، والاستعداد لتلك المظاهر ، وحرص القلوب عليها ، والطمع فى المزيد منها ، يجعل الانسان نافراً عن كل ما يهدد هذا المتاع وذلك الجاه ، متجنياً على القيم العليا ، واصفاً اياها بغير ما هى عليه من السمو والعظمة ، يقسم أغلظ الايمان ليدحض الحق ويعلى كلمة الباطل ، ويفرق بين الناس حتى

لا يجتمعوا على الحق ، ويسلك لذلك طريق النميمة والهمز ، كل ذلك بسبب حب المال والفناء فى متاعه الزائل . ولكن هؤلاء المعاندين لا يصدرن عن حق آمنوا به ، وانما هو العناد والمكابرة ، والفزع من زوال الجاه والمال والرئاسة ، ولهذا نسبوا القرآن الى نوع من التفوق البشرى هو السحر ، أو الصلح بالتاريخ ، ولم ينسبوه الى الغيب الذى هو فوق البشر والأكوان جميعا .

هكذا كان كفار العرب الجبابرة وغيرهم من أساطين الكفر فى الرسالات الأخرى .

قال قوم شعيب لشعيب : (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء - ٨٧) هود .

وقال قوم لوط عن لوط : (أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم اناس يتظهرون - ٥٦) النمل .

وقال فرعون عن موسى : (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتيك بسحر مثله - ٥٧ ، ٥٨) طه .

وقال قوم هود لهود : (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء - ٥٤) هود .

وقال القرشيون عن نبي الاسلام : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ٣١) الزخرف .

وكان اليهود يخافون على مناصبهم ، فكتب علماءهم البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وفزع اليهود حديثا على ما كفروا من أجله وهو المال وتجارة الشهوات فابتكروا الشيعوية ديناً ، وانفقوا الملايين لاقتناع الناس بأن الايمان بالله أفيون الشعوب . ولم يكن ذلك جديداً فى الفكر اليهودى الملحد ، فقد اتهموا الله سبحانه وتعالى بأنه اقطاعى يحجز المال عن الناس فقالوا : (يله الله مغلوله) . وبأنه مراب فاحش الربا ، فقال جبرهم فنحاص معلقاً على آية الصدقة لآبى بكر : (ان ربك قد افتقر ، وانه يأكل الربا عشرة أضعاف ، ونحن نأكله ضعفا واحداً) . وقاموا بما يشبه الثورات الشيعوية الحديثة حين ناروا على المن والسلوى ، وطلبوا القناء والبصل ، وحينما طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة ، بل وحينما طلبوا منه أن يجعل لهم أصناما كأصنام الكافرين .

هذا هو منطق الاحاد وطاغوته الذى افتتح الله كتابه به على ترتيب النزول ، وتلك هى أهميته العظمى التى كان من الواجب على المسلمين دراستها من خلال ترتيب نزول القرآن ، ولكنهم بكل أسف أغفلوا هذا الجانب فأغفلوا بهذا الاغفال بابا هو من صميم دعوتهم ، ومن أصول ثقافتهم ونجاحهم ، ومن مبادئ علمهم بعدوهم ، وأصبح دفاعهم عن دينهم فى مواجهة مذاهب اليهودية العالمية سطحيا لا يمت الى جذور الصراع بأية صلة ، وأمعنوا فى السطحية حتى نسبوا الى القرآن أنه أول دستور سماوى نادى باشتراكية ماركس ، وهذا هو قصارى ما تريده اليهودية العالمية من المسلمين لتمضى على الطريق فى غزو القرآن بهذه العقول النخرة المتهالكة .

وتسمية القرآن فى مطلع النزول بالذكر ذات دلالة عظمى على منهج التربية والدعوة فى الاسلام ، فهى تسمية تساير مضمون أول سورة العلق تياما . فالذكر مقصود بمعانيه ، وهى : ملكة حفظ المعلومات وجمعها ، أو توارد المعانى على القلب عند الحاجة اليها ، أو ذكر الله بالقلب واللسان حتى يكون الذاكر مراقبا لله فى كل حركاته وسكناته ، أو الانتفاع بما فى القرآن من مواعظ وحكم وعبرة . فتلك المعانى كلها مرادة من الذكر ، وهى مع أول سورة العلق تمثلان نفس المنهج التربوى متكاملأ ، وهذا المنهج المتكامل هو خير ما يقاوم تيار الكفر ومنطق الاحاد ، بتكوين قاعدة عريضة وصلبة من الايمان الحق بالقوة القاهرة العليا .

ثم نأتى الى حديث الله تعالى عن القرآن فى مطلع ترتيب المصحف فنرى العجب العجاب من حكمة الله فى ترتيب كتابه الحكيم ، فالسورة الحادية والخمسون فى ترتيب النزول تتصدر القرآن فى ترتيب المصحف ٥٥ فما حكمة هذا التصدر ، وما سره ؟

نزلت سورة البقرة بالمدينة ، والمدينة بوضعها الرمزي بل والأصيل هى حاضرة دار الاسلام ، وعاصمة الحكم لامة الاسلام ، ومنطلق الفاتحين المبشرين بالدين الجديد ، ومركز الدعوة ضد دار الكفر فى مكة ، وفيما الى مكة والمدينة من اقاصى الجزيرة ، وفيما نأخم المدينة من أرض اليهود . أى أن المدينة قد أصبحت قاعدة الصراع والدعوة ، ومجتمع المؤمنين القادة الأوائل ، وكان القرآن قد استقر بمنطقه وقوته بين المؤمنين ، وخلف بين كفار مكة بعد الهجرة فرعا أطاش منهم الصواب .

لقد مضت مرحلة الذكر بمعانيها التربوية الأولى ، وأصبح الذكر مقرونا بانهدى للمؤمنين فى الحاضرة الجديدة للاسلام ، وفى كل دولة ينتشر

فيها الاسلام فيما بعد عصر الرسول الى آخر الزمان ، وتستقر فيها دعائمه ،
وتتجاوز مرحلة الصراع بين العناد والاستسلام ،

وحاجة البناء الجديدة في المدينة وما شابهها من حواضر الاسلام المكلفة
بالمهاد لنشر الاسلام الى الهداية ، وحاجتها الى تحديد صفات المؤمنين
وخصائصهم لا تدانيها حاجة من حاجات الأمم الناشئة ذات الرسالات
والدعوات الكبرى . وذلك ليستوثق كل مؤمن من نفسه ، ويكتشف بنور
الهدى وظاهر العلامات ذلك النوع من الناس الذين تصاب بهم المثل العليا
في كل زمان وهم المنافقون .

والهدى يبدأ من فطرة الانسان ، وما أودعه الله فيه من ملكة الفرق بين
الحق والباطل اذا لم يعمل على افساد فطرته بالتمرغ في وحل الهوى وتلك
هي التقوى ، ثم يتدرج بعد ان يزول الهوى عن النفس وتتجرد الفطرة الى
فقه ما نزل من القرآن ، وتعرف وجوه حكمته ، ثم يتدرج بعد احكام هذين
الوجهين الى الظفر بعون الله على الهداية والتقوى (**والذين اهتموا باهم هدى**
واتاهم تقواهم) . وهنا يستقيم وجه المؤمنين على طريق الرضوان الالهى .
الى جنة الخلد ونعيم لا يبلى بحول الله .

اما سمات المؤمنين المتقين الظافرين بعون الله على الهدى والتقوى فقد
اعقبت وصف القرآن بأنه هدى في مطلع سورة البقرة . فالمؤمن كما قلنا
يجرد نفسه عن الهوى ، ويفقه بفطرته ما دعى الى فهمه من كتاب الله ،
ودعوة الرسول ، فيمنحه الله مزيدا من الهدى ، ويؤتيه على الفور درجة
التقوى ، وفي التقوى يندرج : الايمان بالغيب ، واقامة الصلاة ، وانحلال
قبضة القلب واليد عن المال وانفاقه في سبيل الله ، والايمان بالرسول
والكتب ، واليقين بالبعث والحساب في الآخرة . أي هي : وصل الحياة
الآخري بالحياة الدنيا ، على الوجه الذي شرحناه في صدر هذه الدراسة .

وهنا يتميز المؤمنون المتقون بعلامات ظاهرة ، وعلامات أخرى باطنة
كاليقين بالآخرة لها دلائل من السلوك الظاهري ، وهذا التمييز للمتقين يعزل
تلقائيا المنافقين فلا يخفون على مؤمن تقى أورثه اليقين بالغيب بصيرة نافذة ،
وفراسة لا تخطئ . ومع ذلك فلم يكل الله المؤمنين الى جهودهم في كشف
المنافقين دون أن يمتحهم مزيدا من الهداية الى معرفتهم بسماتهم الظاهرة لكل
ذى عينين ، وذلك لخطورة هذا النوع من الناس على بناء الحضارات في كل
زمان ، ولرواج خداعهم لدى ضعف الايمان . ولهذا مضت السورة في تحديد
معالم النفاق من قوله تعالى : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر**
وما هم بمؤمنين - ٨) الى (**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله**

على كل شيء قدير - ٢٠) • أما تفصيل المراتب النفسية للنفاق ودوافعه
فموضوع طويل يخرج بنا عن مقصود الدراسة •

ولقد فطن الامام السيوطى الى سر ترتيب المصحف من هذه الوجهة التى
شرحنا طرفا منها غير الذى تحدث عنه فقال فى كلامه عن سورة البقرة
ما تسوقه بتصرف :

كان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر ، وخطاب اليهود فى البقرة
أكثر ، لأن التوراة أصل ، والانجيل فرع لها ، والرسول دعا اليهود
فى المدينة ، ولم يجاهد النصارى الا آخر الامر ٠٠٠ وسورة النساء تضمنت
أحكام الاسباب التى بين الناس مما هو مخلوق لله ، ومقدور لهم ، كالنسب
والصهر ، وهو أساس بناء المجتمع • ولهذا تضمنت أحكام النكاح ومحرماته ،
والموارث المتعلقة بالارحام ، وأما المائدة فسورة العقود التى تنشأ عن الجهاد
والصراع بين أمة الاسلام والأمم الأخرى ، وتضمنت تمام الشرائع ، ومكملات
الدين ، وصيائنه من عوامل الهدم ، كتحريم الخمر ، وعقوبة المعتدين من
السراق والمحاربين ٠٠٠ الى آخر ما قاله فأبدع فى القول •

وحينما دقت النظر استبان لك معنى جديد من معانى الترتيب ، فما
يصح فى منطق القول أن نحدد مرادات الله ، وهو المطلق عن الاطلاق ، والمحيط
بالعقول والمواهب •

ولو ذهبنا مع القرآن مرتبا فى المصحف من أوله الى آخره لوجدناه
على هذه الوتيرة : شعار أمة مجاهدة مؤمنة كلها هدى ونور قد انزل بنور
هدايتهم المنافقون ، ووضعوا فى صف واحد مع المشركين فى وجوب جهادهم ،
بعد أن كان على ترتيب النزول وسيلة اقناع ، وأداة صراع مع منطق الكفر ،
وجبروت النفاق ، ودفاعا عن مقدسات الهدى والايمان • وما كان على ترتيب
النزول مقدما عاد فوضع فى أماكنه بحيث لا تخطئه الحكمة ولا يعدوه الاحكام
والتفصيل ، وتلك دلالة كبرى على اعجاز القرآن ما بعدها دلالة لطالب عظمة
القرآن • وفى كتاب الامام السيوطى الذى الحقناه بهذه الدراسة خير دليل
نقدمه على صحة ما نقول •

ولقد عرف سر ترتيب القرآن قديما بعلم المناسبات ، وما عرف منه
فإنما هو ما فى ترتيب المصحف ، أما أسرار ترتيب النزول فلا نعلم أحدا
تعرض له فى كتاب ، لا فى القديم ولا فى الحديث ، الا قليلا فى كتب
الأصول •

ورغم كثرة كتب التفسير التقليدى فان المؤلفات فى سر ترتيب القرآن

أو علم المناسبة قليلة جدا ، فالذى نعلمه من هذه الكتب كتاب البقاعى « نظم الدرر » ومنه نسخة كاملة بالمكتبة الأزهرية بمصر فى ستة مجلدات كبار . وكتاب « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » لأبى جعفر بن الزبير ، شيخ أبى حيان صاحب البحر المحيط . وكتاب السيوطى هذا الذى تقدمه للقراء ، وكتاب آخر للسيوطى سماه « مرآيد المطالع فى المقاطع والمطالع » . وكتاب قال السيوطى أنه كتبه وجعل من أبوابه الموسوعية ترتيب القرآن سماه « اسرار التنزيل » .

وقد نبه العلماء قديما على اهمال علم المناسبة ، ولفتوا الأنظار الى أنه يحتوى على لطائف القرآن ، بل ان الفخر الرازى قال : « من تأمل فى لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة الفاظه ، وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته . ولعل الذين قالوا : انه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، الا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير متبهرين لهذه الأسرار » .

وكان ابن العربى قد يشس من طلاب العلم والعلماء الذين أعرضوا جملة وتفصيلا عن هذا العلم الجليل ، وأعرب عن يأسه فى قوله : « ارتباط أى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المباني ، علم عظيم لم يتعرض له الا عالم واحد ، عمل سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حملا ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه اليه » .

وقد جاهد الشيخ أبو بكر النيسابورى فى نشر هذا العلم ، فجعل دروسه فى التفسير قائمة على بيان المناسبات ، ومع ذلك فقد أعلن سخطه على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبات .

ومن العجيب أن اهمال هذا الجانب من الدراسات القرآنية المهمة لا زال قائما لم يتقدم خطوة واحدة الى الأمام . فعلى الرغم من أن مؤسسات النشر الحكومية والخاصة دائبة على نشر الكتب التقليدية فى التفسير ، والتي يغنى بعضها عن مجموعها فقد أغلقت أبوابها فى وجه أول تفسير موسوعى من نوعه تخصص فى هذا النوع ، وهو « نظم الدرر » للبقاعى . ولا حجة لهذه الدور فى انها تيشد الرواج التجارى للكتب ، فهذا الكتاب فى الدرجة الأولى من الرواج لعدم وجود نظير له بين الدارسين ، وجودته الفائقة من جهة أخرى . ولا حجة لكبار العلماء فى جهلهم بهذا الكتاب ، فالذى نعلمه أنه كان بصفة دائمة على مكتب الشيخ المراغى ، واقتبس منه كبير من العلماء جملا صنع منها تفسيراً نسبته لنفسه . فان كان حبس الكتاب عن الطبع ليكون

مصدرا للسطو فيئس الصنيع ، وإن كان حبسه مع غيره تخفيفا لمخطط قصد به أن يظل المسلمون بين لفظ التكرار الممل لعلوم التفسير فيا خيبة المسمى .

ولقد نفذ غلاة الشيعة وكثير من الملاحدة من خلال موضوع ترتيب القرآن في المصحف ، وأطالوا القول طعنا في القرآن الكريم متذرعين باختلاف مصاحف بعض الصحابة في ترتيبها ، وغير ذلك من الذرائع الواهية التي تكفل الامام السيوطي بالرد عنهما في مقدمة كتابه هذا . ثم ساق كتابه دليلا على أن ترتيب القرآن في المصحف توقيفي الى جانب الأدلة الأخرى التي فصلها في المقدمة .

وهناك دلائل من سياق ترتيب القرآن في المصحف تؤكد أن ترتيبه فيه ما كان الا بالوحي ، ولم يكن من صنع بشر ، لأن تلك الاعتبارات المرعية في هذا الترتيب لم تكن من منهج الصحابة في التفكير ، ولا سمعنا أن اجتماعا حدث بينهم لهذا الترتيب ، اللهم الا ما روى عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع . . . » وما دام هذا التأليف كان عند الرسول ، فما كان الرسول ناطقا عن الهوى ، لا سيما وقد صرح انه كان يرشد كتاب الوحي والحفاظ الى مكان الآية من سورتها عقب نزولها . ومن تلك الدلائل ما يلي :

١ - قوله تعالى في سورة البقرة : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم - ٢١) فالعبادة في الآية معناها : التوحيد . وهو أول ما يلزم العبد معرفته ، والايمان به ، ولهذا كان أول خطاب خاطب الله به الناس جميعا في أول سورة في القرآن ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في نفس السورة : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) قال الكرمانى : وهو علم الكمال ، أى العلم بالله وأسمائه وصفاته ، ولذلك عبر عنه بقوله : (الذى) .

وورود هذه الآية بهذا المعنى في أول سورة في المصحف مع أنها مدنية وليست مكية ، دليل على أن هذا الترتيب توقيفي من الوحي ، ويدل عليه قوله تعالى في سورة هود : (فأتوا بعشر سور مثله - ٣) وسورة هود مكية ، والمعنى : فأتوا بعشر سور مثله ، أى : من البقرة الى هود ، وهى العاشرة ، مع أن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة مدنيات نزلن بعدها .

فأية هود مستقيمة المعنى على ترتيب النزول ، باعتبار أن التحدى واقع على عشر سور من القرآن عامة غير محددة ، ولكن ترتيب المصحف حدد العشر ، وحدد أول ما يجب على العبد معرفته واعتقاده مثبتا في أول سورة من القرآن .

٢ - ومن دلائل الترتيب واحكامه قوله تعالى في سورة البقرة :
« **الا ابليس ابى واستكبر** - ٣٤) • ولقد جرت عادة القرآن في شأن العقيدة
أن يجمعها ، ثم يفصلها فيما بعدها من الآيات • وهذا هو الثابت في ترتيب
المصحف • وإباء السجود من ابليس يعتبر بيانا للعقيدة عن طريق بيان موانع
الايمان بها ، وقد جاءت تلك الموانع مجملة في قوله : (أبى) • ثم فصلت
فيما بعدها من السور على ترتيب لا يخلو من الأسرار واحكام الترتيب •

ففى سورة الحجر قال تعالى : (**الا ابليس ابى أن يكون مع الساجدين**
- ٣١) • وفيه بيان لموضع الإباء • وفى سورة الاسراء : (**قال أسجد لمن
خلقت طينا** - ٦١) • وهو بيان لعل الإباء • وفى سورة الكهف : « **الا ابليس
استكبر وكان من الكافرين** - ٧٤) • وفيه علة من علل الإباء وهى الكبر •
مع تفصيل نتائجها ، وانها تصل بصاحبها الى الكفر • فانتهى بما بدأ به من
تقرير هذه القضية التى يقوم عليها الكفر فى كل زمان •

٣ - قوله تعالى فى سورة البقرة عن بنى اسرائيل : (**ويقتلون النبيين**
بغير الحق - ٦١) • وفى آل عمران : (**ويقتلون النبيين بغير حق** - ٢١) •
وفى سورة النساء : (**وقتلهم الأنبياء بغير حق** - ١٥٥) • فقد وردت كلمة
(الحق) معرفة بالالف واللام فى البقرة ، ونكرة فى آل عمران والنساء •
وقال المفسرون : ان المعرفة يراد بها الحق الذى أمر الله أن تقتل النفس بسببه
وهو قوله تعالى : (**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** - ٦ : ١٥١) •
فكان أولى أن يذكر مقدما ومعرفا ، لأنه من الله تعالى ، ولأنه عام فى الشرائع
كلها • والنكرة فى آل عمران والنساء معناها : بغير حق فى معتقدهم ودينهم ،
فكان أولى بالتأخير ، لأنه خاص بفريق من الناس ، وليس عاما فى الشرائع
والديانات •

٤ - قوله تعالى فى دعاء ابراهيم الخليل عند بيت الله المحرم فى سورة
البقرة : (**رب اجعل هذا بلدا آمنا** - ١٢٦) • وفى سورة ابراهيم : (**رب
اجعل هذا البلدا آمنا** - ٣٥) • فكلمة (بلدا) جاءت منكرا فى البقرة ،
ومعرفة فى ابراهيم ، لأن الدعاء الوارد فى البقرة كان قبل بناء الكعبة ،
كما أشير اليه بقوله تعالى : (**بواد غير ذى زرع** - ٣٧) • فلما بنيت الكعبة ،
واستقر حولها الناس ، جاء الدعاء للبلد المعروف المحدد المعالم ، ولذلك جاء
معرفا ، وجاء عقبه فى ابراهيم : (**واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام**) وجاء
فى البقرة عقبه : (**وارزق اهلك من الثمرات**) •

٥ - قال تعالى فى سورة البقرة : (**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون**
الدين لله - ١٩٣) وقال فى سورة الأنفال : (**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**

ويكون الدين كله لله - ٣٩) • وقد جاء هذا النسق على ترتيب القتال داخل الجزيرة العربية وخارجها • فالذى فى سورة البقرة يراد به كفار الجزيرة العربية ، لتكوين القاعدة العربية الأولى التى يناط بها نشر الدعوة خارج الجزيرة • ولذلك جاء فى الأنفال كلمة (كله) إشارة الى قتال جميع الكفار ، وقد تطابق الترتيب مع الواقع ، ورتبت الأوامر حسب تدرجها •

٦ - فى معرض التحدى بالقرآن جاء فى سورة البقرة خطابا لمنكرى أن القرآن من عند الله : (وادعوا شهداءكم - ٢٣) • ثم جاء فى سورة يونس : (وادعوا من استطعتم - ٣٨) • وكذلك جاء فى سورة هود ، وذلك لأنه لما زاد فى السور المتحدى بها الى عشر سور ، زاد فى المدعويين فقال : (من استطعتم) • ولما كان التحدى فى سورة البقرة بسورة واحدة قل عدد المدعويين ، وانحصر فى الشهداء وحدهم •

وقد مضى الترتيب مسيرا للملابسات حتى سورة الاسراء ، اذ وقع التحدى صراحة على جميع القرآن ، فوجه الكلام الى الجن والأنس جميعا فقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - ٨٨) •

وبهذا ندرك تدرج التحدى من سورة ، الى عشر سور ، الى القرآن كله ، وملاءمة القرآن بين القدر المتحدى به ، ومقدار المدعويين الى معارضته ، فى ترتيب دقيق محكم •

٧ - وترتيب مجموعة من الآيات فى موضوع واحد تتجلى فيه الدقة الحارقة فى مراعاة التسلسل المنطقي للفكرة التى تدور حولها تلك المجموعة ، مما يقطع بأنه من عمل غير الصحابة ، أى أنه توقيف من الوحي ، لأن تلك الملاحظات لم تكن قط من الأمور التى جرى بحثها والكلام عنها فى عهد الصحابة كما تشهد بذلك آثارهم •

فقد جاء فى سورة النحل جملة (االه مع الله) خمس مرات متوالية • وختمت الأولى بقوله : (بل هم قوم يعدلون - ٦٠) • والثانية بقوله : (بل أكثرهم لا يعلمون - ٦١) • والثالثة بقوله : (قليلا ما تذكرون - ٦٢) • والرابعة بقوله : (تعالى الله عما يشركون - ٦٣) • والخامسة بقوله : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين - ٦٤) •

قال الكرمانى : عدلوا الى الذنوب ، وأول الذنوب : العدل عن الحق ، ثم لم يعلموا ، ولو علموا ما عدلوا ، ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال ،

فاشركوا من غير حجة ولا برهان ، قل لهم يا محمد : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

٨ - وفي ترتيب المسبحات قد استوعب القرآن هذه الكلمة ، كلمة التسبيح من جميع جهاتها ، على ترتيب بديع يتفق مع المعاني اللغوية تمام الاتفاق ، فلم يتقدم معنى يستحق التأخير ، ولم يتأخر معنى يستحق التقديم .

فقد استعملت الكلمة أولا في سورة الاسراء على هيئة المصدر (سبحان) ، لأن المصدر هو الأصل اللغوي لجميع المشتقات ، ثم استعملت بعد المصدر بالفعل الماضي في سورة الحديد والحشر والصف ، لأن الماضي أسبق الزمانين ، ثم استعملت بالفعل المضارع في سورتي الجمعة والتغابن ، ثم جاءت أخيرا بفعل الأمر في سورة الأعلى .

فاستوعبت الكلمة من جميع جهاتها على ترتيب بين أصلها وأزمعتها قل أن يظن اليه البشر الذين يخلطون بين الأزمنة والأصول والفروع .

ومما يؤكد أن ترتيب القرآن في المصحف آياته وسوره بتوقيف كثرة هذه الشواهد حتى تبلغ الآلاف المؤلفة ، منشورة في مؤلفات العلماء ، ومن البعيد جدا أن يكون الرهط الذين كلفهم عثمان رضى الله عنه بجمع سور القرآن في المصحف قد بحثوا عن هذه المناسبات ، ثم رتبوا القرآن على أساسها ، فكما قلنا هناك من المناسبات ما يشتمل على تقسيمات وتقريعات لم تكن من ثقافة العصر ، ولم يؤثر مثلها عن الصحابة ، ولم تظهر الا بعد عصرهم . كما أن المأثور من جمع القرآن أنه حدث ثلاث مرات : مرة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبإمره ، كما قال زيد بن ثابت : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع . . . والاجماع قد انعقد على أنه صلى الله عليه وسلم كان يرشد الصحابة الى مواضع الآيات من السور تلقيا من الوحي ، وعلى هذا فترتيب الآيات في سورها توقيفي من الوحي ، وكانت المرة الثانية في عهد أبي بكر ، فقد كلف زيد ابن ثابت بتأليف لجنة قامت بعملية تحقيق ومقارنة لنصوص القرآن المكتوبة بالمحفوظ في الصدور ، وكان عمل اللجنة كما يقول الحارث المحاسبى : عبارة عن نسخ القرآن من العسب والأكثاف والرقاع في مكان واحد مجتمعا . والمرة الثالثة في عهد عثمان ، وكانت لاعادة كتابة القرآن بلهجة قريش خوفا من فتنة قد تنشأ من اختلاف اللهجات والقراءات ، حتى اقتتل المعلمون والصبيان على ذلك ، ورتبت السور في هذه المرة ، وليس في الآثار أن مراعاة المناسبات المعنوية واللفظية كانت من عناصر الترتيب مطلقا .

وإذا كان هناك زعم بأن هذا الترتيب كان من فعل الصحابة ، فانه من غير المعقول أن يظن أحسد الى تسلسل الاشتقاق المحكم للمسبحات على الوجه الذى بيناه ، والى أمثال ذلك مما يحتاج الى درس لقواعد اللغة التى لم تكن قد عرفت بعد . والقول بالصدفة هنا تبطله الشواهد الأخرى المماثلة والتى لا تحصى ، والتى لا يمكن أن تكون الا عن وحى وتوقيف .

ولا ندرى كيف يؤكد بعض علماء السلف أن ترتيب السور كان من عمل الصحابة استنادا الى الاختلاف فى مصاحف بعض الصحابة مع هذه الشواهد التى تؤكد تسلسل المعانى والاشتقاقات اللغوية ، والوقائع التاريخية داخل السور وفى تسلسلها كما هو فى المصحف . وغاب عنهم : أن الترتيب التوقيفى لا يمنع مطلقا التقديم والتأخير فى القراءة ما لم تقرأ السورة منكوسة من آخرها الى أولها ، وترتيب السور على النزول توقيف هو الآخر ، أما مصحفا أبى وابن مسعود فقد رد السيوطى عن خلافهما فى الترتيب للمصحف العثمانى . على أن قتادة كان قد عرض على عكرمة أن يؤلف القرآن على ترتيب النزول آية آية ، الأول فالأول ، ولكن المشروع كان مستحيلا ، اذ قال عكرمة : لو اجتمع الانس والجن على أن يؤلفوه كذلك ما استطاعوا . ولو استطاعوا لكان تأليفا توقيفيا سائغا هو الآخر .

بقى أن نشير - زيادة على ما ذكره السيوطى أو توضيحا له - بعض القواعد والأصول التى قام عليها سر الترتيب ودلت دلالة قاطعة فى الوقت نفسه على أن رعاية هذه القواعد والأصول لم تكن مألوفة ولا كانت من شغل الصحابة الذين شغلوا بالعمل وعلم العمل والجهد ، ولم يتفرغوا لهذه الأسرار التى أودعها الله فى الكتاب سرا فى ترتيبه كما هو فى المصحف .

قالوا : ان الأمر الكلى الذى يفيد معرفة مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أن تنظر الى الغرض التى سبقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد عن المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات الى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام أو اللوازم التسابعة له ، والتى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع هذا الاستشراف الى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن .

وقالوا : إن التناسب أنواع :

منها مناسبة فواتح السور وخواتمها ، كما فى فاتحة سورة «المؤمنون» (قد افلح المؤمنون) . وفى نهايتها : (انه لا يفلح الكافرون) . وكما فى

فاتحة سورة ص (والقرآن ذي الذكر) • وخاتمتها : (ان هو الا ذكر للعالمين) •

ومنها مناسبة فاتحة السورة لحاتمة ما قبلها ، وقد اشبع السيوطي القول في هذا النوع •

ومنها اختصاص كل سورة من السور المفتحة بالحروف المقطعة بما بدئت به ، حتى لم يكن من الممكن أن توضع (الم) في موضع (الر) ولا (حم) موضع (طس) • وذلك لأن كل سورة بدئت بحرف ، فان هذا يقلب ويكثر في أثناء السورة • ومثل ذلك سورة (ق) ويونس ، فقد تكررت الكلمات المحتوية على القاف والراء في هاتين السورتين وأمثالهما من خمسين مرة الى مائتي مرة حسب طول السورة ، وهكذا في جميع تلك السور •

ومنها التناسب بالتنظير ، والتضاد ، والاستطراد ، والتخلص الى الغرض ، وغير ذلك من الأنواع التي يطول بها المقال ، ولكنها مع الأنواع الأخرى التي ذكرها السيوطي في كتابه هذا على كثرتها تؤكد أنها لم تكن من منهج جمع القرآن ، وأن هذا الترتيب من الوحي ، لا سيما وأن الترتيب الذي تم على يد عثمان رضي الله عنه كان سنة خمس وعشرين ، وبدت الفتنة سنة ثلاثين ، واستمرت خمس سنين ، ولم تكن الفتنة عملاً مفاجئاً دون مقدمات كان منها شكوى عثمان من خلاف ابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهما عليه ، وكان انتهاء اللجنة التي قامت بكتابة المصحف الامام وترتيبه قبل وفاة ابن مسعود ، لانه كما يروى اعترض على تولية زيد هذه المهمة ، وقد توفي ابن مسعود سنة (٣٢) ، اذن فالزمن الذي استغرقه جمع المصحف لا يتجاوز أربع سنين تقريباً ، وهو زمن لا يكفي مطلقاً لفحص الأساليب القرآنية والمعاني التي قصد منها ، والاعتبارات الكثيرة جداً والتي قام على أساسها الترتيب ، فلم يبق الا أنه توقيف من الوحي ، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير •

القرآن ومنهج الدعوة

من العسير أن تفصل القول في ارتباط الترتيب النزولي والترتيب المصحفي بمنهج القرآن في الدعوة على المستوى الانشائي لأمة العرب والمستوى الدستوري العالمي لأمة القرآن في العالم كله - من العسير امتيعاب

القول فى ذلك مفصلا فى هذه العجالة ، ولكننا نستعين الله فى رسم الخطوط العريضة التى تلقى ضوءا يكشف عن عظمة الحكيم الحبير سبحانه وهر يودع كتابه المبين وسائل الاعلام الناجحة لمن فقه وعقل وتدبر .

فمن المعلوم : أن الزمن الذى قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة - وهو نصف زمن الرسالة على وجه التقريب - اقتضت دعوته فيه على العقيدة وروافدها ، ووسائل اعلانها وترسيخها على المستوى العربى القرشى المختار لنشر الدعوة فى الجزيرة العربية كلها ، ثم فى خارجها على مقتضى عموم الرسالة للبشر جميعا . ولم يشرع من العبادات فى مكة غير الصلاة ، وذلك لصلتها الوثيقة بالعقيدة بالعبادة من حيث هى تدريب على متكرر فى اليوم واليلة على (الاجتماع) الروحى الواعى فى وجدان العقيدة ، بقطع العلائق النفسية ، وطهارة المكان والجسد من النجاسة الظاهرة ، والقلب من كل شاغل دنيوى حتى يتوحد الانسان المصلى ، ثم يتوجه - وهو على هذه الحالة من الاجتماع - نحو الله الواحد فى مناجاة تغمره بفيض من الايمان بعبوديته الكاملة للحق من دون الناس والشهوات ، وسلطان النفس ، وأوهام الضلالات الوثنية . أما تشريع الحلال والحرام والفرائض الأخرى فقد كان بعد الهجرة ، وبعد أن أتى هذا المنهج الحكيم ثماره فى أكثر من عشر سنين قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر ربه فى تدريب الرعيل الأول من أصحابه (عرب قريش) على أحكام العقيدة قولاً وعملاً ، وإسلاماً وإيماناً ، وذوقاً فى أعمق الرّجدان وأغوار العقل .

كان لابد من هذه البداية الحكيمة ، لأن عقيدة يضطرب فيها المرء بين الاذعان والشرك ، لا يمكن أن تكون منطلقاً مأمون العواقب لاقامة بناء دين لامة رائدة ، كما أن الخلط بين التدريب على احكام العقيدة وبين تشريع الحلال والحرام فى وقت واحد مظنة التفلت من عرا الاسلام ايثارا للهوى على المثل الأعلى ، وللحياة على الشهادة فى سبيل معبود لم تنعقد عليه القلوب .

وكان لابد من تأسيس تلك العقيدة فى مكة بالذات من دون بلاد الجزيرة العربية ، اذ هى وحدها البيئة المعزولة عن ضجيج الفلسفات التى دارت قضاياها حول الألوهية فى دولة الروم والهند ومصر وفارس ، ولا يمكن أن تستقر عقيدة تنمو بين تلك المذاهب الا وقد احتوتها تلك الفلسفات ، وزودتها بسلح هدام من الجدل والمراء . وهى وحدها البلد التى يقوم بين ربوعها أول بيت وضع للناس : بيت الله الحرام ، وكان للبيت عندهم منزلة عظمى على شركهم ، كما كانت وظائفه كالرفادة والسقاية والسدانة وغيرها

مصدر شرف لا يدانيه شرف لمن يتولونها ، ومن هنا كان البيت الحرام بمثابة الوسيلة التعليمية الناجحة حينما تثبت النابتة الأولى للوحداية الشاملة فى جواره .

وانما اختار الله العرب وقريشا بوجه خاص ليكونوا خير أمة أخرجت للناس لأسباب كثيرة تذكر من أهمها : أنهم يحملون سمات العالمية فى دمائهم ، وسواء كانت تلك العالمية ناشئة من الهجرات القديمة ، أو كانت من طريق تكوين العنصر ، فان دم ابراهيم الكلدانى عليه السلام يجرى الى ولده اسماعيل مختلطا بدم المصرية الصالحة (هاجر) ثم يختلط دم اسماعيل هذا بدماء جرهم اليمنية ليكون العرب من قريش خلاصة هذه السلالة العجيبة بين سلالات البشر ، بما أودعه الله فيها من خلال الشرف ، وسلامة النفس من العقد ، والاستعداد لتفسير غير المنظور بالمنظور عن طريق المقارنة وتلمس انقراض الواضحة .

فالعرب رغم ما شاب طبائعهم الاصيله من سعار المال ، وقسوة القلب ، والاستعلاء على الضعيف ، والاغراق فى المحرمات ، كانوا على استعداد للمضى على طريق الحق بنفس القوة والصرامة التى مارسوا بها نشاطهم على طريق الباطل اذا أحسنت سياستهم ، وأحكم أمرهم على توجيهه منظم . فقد كانت لديهم صفات كثيرة تشير الى استعداد للتفوق والزعامة ، والجمع بين وعى الروح ووعى العقل فى ثقافة واحدة ، وكان من صفاتهم البارزة : عدم الاستجابة للعقد النفسية ، فبقيت روحهم المعنوية عالية حصينة من كل ما يخفئها أو يحد من اندفاعها ، مما أهلهم بحق لأن يكونوا أمة رائدة لحضارة القرآن .

ويقول الجاحظ فى هذا الصدد : « وقد فخرُوا بالعمى ، وذلك كثير ، واحتجوا بالعرج ، وذلك غير قليل .. وإذا كان الاعرابى يعتريه البرص فيجعله زيادة فى الجمال ، ودليلا على المجد ، فما ظنك بقوله فى العمى والعرج وهما لا يستقدران ولا يتقزز منهما .. وقد يفر الاعرابى فى الحرب ، فلا يقر بالجن من الأعداء ، وبالنكول عن الأكفاء ، بل يخرج لذلك الفرار معنى ، ويجعل له مذهبا ، ثم لا يرضى حتى يجعل ذلك المفخر شعرا ، ويشهره فى الآفاق » .

ثم يقول فى هذا الشأن : « ويكون الاعرابى شختا (ضامرا خلفه لا هزلا) مهزولا مقرقما (لا يشب لسوء الغذاء) فيجعل ذلك دليلا على كرم أعراقه ، وشرف ولادته .. وفى ذلك أنشدوا

قد علمت أنا أتاويان من كرم الأعراق ضاويان

وأنشدوا كذلك : * قرقمه العز وأضواه الكرم *

والأتاويان : مثني الأتاوي ، وهو الغريب . والضاوي : النحيف خلقة .

وقال أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وقد عيره بعض نسائه بالعرج :

قالت عرجت فقد عرجت فما الذى أنكرت من جلدى وحسن فعالى
أدع الرفاجة لا أريد نماءها كىما أفيد رغائب الاموال
وأكف سهمى عن وجوه جمّة حتى تصيب مقاتل البخال
والرفاجة : التجارة .

ويشير الجاحظ فى كتابه عن العرجان والبرصان الى ما وراء هذا الخلق من قوة الروح المعنوية التى تعتبر سمة لازمة لحماية دعوة الاسلام من العدوان وهى تخوض مع أعدائها معارك ضارية داخل الجزيرة وخارجها فيقول : « فبهذه النفوس حفظك الله حفظوا أنسابهم ، وتذاكروا مآثرهم ، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم ، وحاربوا أعداءهم ، وطالبوا بطوائفهم (جمع طائفة ، وهى الثار) ، ورأوا للشرف حقاً لم يره سواهم » .

ولم تكن هذه الروح المعنوية الفطرية عند العرب - لا سيما القرشيين منهم - دعوى عريضة دون سند من العمل السلوكى الجاد الذى يدعمها ، ويدل على صدقها ، وعلى صلاحيتها للحركة فى مختلف المستويات ، فالواقع التاريخي يحدثنا عن التدريبات العسكرية التى تصل الى أرقى المستويات فى العصر الأول . والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه كان يسابق عائشة رضى الله عنها ، وكان الرمي وتضمير الحيل من أهم أعمالهم العسكرية ، كما يحدثنا ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن عمر بن الخطاب كان يمسك أذنه اليسرى بأصبعه اليمنى أو أذن فرسه اليسرى بيده اليمنى ثم يقفز على ظهر الفرس كأنما خلق هنالك . وكان ينصح المدربين العسكريين بأن ينزوعوا الركب ، ويقنّزوا على الحيل وأن يلبسوا الحشن من الثياب كما كان يفعل معد بن عدنان الجلد الأعلى لقريش ، وكان يقول : « اياكم والبسمة ، فأنها عقلة (أى وثاق) وامشوا حفاة ، فانكم لا تدرون متى تكون الجولة » .

وعلى ضوء هذه المعلومات وأشباهاها نضع أصابعنا على الخطوط العريضة لأسلوب الدعوة القرآنية في العهد المكي عامة ، وفي ترتيب نزول القرآن بوجه خاص . . . كان المجتمع القبلي بما فيه من المفاخر الجماعية والفردية لذلك المجتمع هو المثل الأعلى السائد بين العرب ، ومن أجله حفظت الأنساب ، واثارت الحروب ، وضرب المتنافسون عليه أكباد الإبل الى الكهان للمنافرة ، وتناشدوا الأشعار ، وعقدوا الأحلاف ، وتكاثروا في المال والعدد . ومن هنا كانت الموهبة العربية حبيسة في إطار لاصق بالأرض وما عليها ، ناثرة في داخل أطارها تريد أن تنطلق منه الى مدهاسا الذي يتناسب مع قوتها ، وصلاحياتها للامتداد ، ولا أدل على ثورة تلك المواهب طلبا للانطلاق من تلك الموجات التي اندفعت من داخل الجزيرة منذ القدم في شكل هجرات الى العراق والشام ، بل وإلى مصر على الراجع من دلالات الآثار والتواريخ .

وإذا كانت الموهبة أكبر من الهدف الذي تعمل له فقد تدارك الله تلك الأمة العجيبة بين أمم الأرض برسول من أنفسها ، وكتاب بلغتها ، وهدف متوازن مع مواهبهم ينطلق بهم من نطاق الأرض الى فسيحة الغيب . . . ولم يكن اقناعها بالإيمان بالغيب من السهولة بمكان . . . ولهذا نرى منهج الدعوة القرآنية يتجه نحو بيان الهدف الجديد الذي يتحتم أن تعمل له كل المواهب العربية ويكشف عن الأخطاء السلوكية المانعة من المضي نحو هذا الهدف . ثم يكشف لهم عن قدرة الله وقهره فوق العباد ، ويتخذ من الترغيب والترهيب طريقا لزلزلة التجرد المادي الذي سيطر عليهم . ويتخذ كذلك من دلالات العقل اذا استخدم الامكانيات البسيطة وغير المعقدة ، والمتاحة لهم جميعا حجة على صدق العقيدة الجديدة ، وسلطان الله على الكون ومن فيه جميعا . وذلك واضح كل الوضوح في السور الأولى التي نزلت في مكة ، وكان هدفها : بناء الجيل الاول من أصلح العرب لموازة الرسول صلى الله عليه وسلم في بسط سلطان الدعوة على نطاق أوسع . . . ويمكن أن يتضح هذا المنهج بسهولة لمن قرأ السور الأولى على ترتيب نزولها ، وهي (العلق ، ون ، والمزمل ، والمدثر ، والتكوير ، والأعلى ، والليل ، والفجر ، والضحي) الى آخر ما هو معلوم من ترتيب النزول .

وخلاصة ما في هذه السور من عناصر الدعوة : تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدعو أمة بأسرها ، منفردا عن المال والأعوان ، تتوالى عليه الاتهامات ، ويتحد ضده جبابرة المال ، وأسرى التراث الوثني ، وعباد الأهواء ، ثم التهوين من شأن المال ، والدعوة الى اعتباره وسيلة لا غاية . وتوجيه الانظار الى ما بين أيديهم من ظواهر الحياة يلتسمون منها الدليل على

المخالف القادر : وحثهم على إعادة النظر فى التواريخ الغابرة التى يقصها عليهم القرآن مثلاً فى عاد ، وادم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى أن الله بالمرصاد لكل أمة جنحت عن طريقه ، وكفرت بأنعمه .

وكان لابد من هدم الفكرة القبلية والاستعلائية ، أو الفكرة العنصرية عند العرب ، اذ لا تستقيم دعوة عالمية على أساس من العنصر والقبيلة والجنس ، ولم تكن المواعظ وحدها كافية فى هذا السبيل ، ولذلك نجد الدعوة هنا تتخذ من العمل وسيلة لتأسيس مبدأ المساواة والاخاء أمام العقيدة بين الطبقات والأجناس جميعاً .

كان السابقون الى الاسلام هم الصورة المثالية لمجتمع الاسلام الذى اعتبر الايمان غاية الغايات ، وبذل فى سبيل تلك الغاية كل ما تعارف عليه العرب من التقاليد التى تحول دون تلك الغاية المثل . فكان مجتمع السابقين يجمع بين كبار الاغنياء وكبار الفقراء ، بين الأحرار والعبيد ، بين العربى والفارسى والرومى والحبشى ، بين البيت الهاشمى والبيت الأموى على ما بينهما من تنافس قديم . وكان اجماع مضمون لأول مرة فى التاريخ العربى على أن يلا العبد الفقير المستضعف الذى كان فى الصف الخلفى دائماً هو سيد من سادات المسلمين ، حينما اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه ، فكانوا يرددون فى مجالسهم « سيدنا أعتق سيدنا » .

هذا هو الأساس الاجتماعى الذى قامت عليه تلك الركيزة الايمانية بما لها من تبعات وأخلاق . . . وحدة الشعوب والعناصر والطبقات والأجناس فى إطار الاسلام . . . لقد أصبح الاسلام وحدة هى مقياس الصلاحية ، ومناط الفخر ، فلا مال ، ولا جنس ، ولا عصبية ، وعاد الاسلام بالمجتمع الأول الى فطرته الأولى (كلكم آدم وآدم من تراب) وأصبحت رعاية الرحم الأولى للانسانية غاية الغايات ، دون اعتداد بالنفقات والمفاخرات الجاهلية الهدامة . . . لقد عاد بلال وسلمان وصهيب الى مجلس أبى بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وما كان لهم بالأمس أن يرفعوا أبصارهم أمام أولئك

السادة إذا استثنينا أبا بكر الصديق الذي كانت له خلائق معينة في الجاهلية أسرعت به إلى الاسلام أول ما سمع به .

ومن عجائب المنهج القرآني للدعوة أن تنزل سورة النحل في مكة وفيها قوله تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) . نزلت هذه الآية والمسلمون يعانون الشدائد في سبيل تكوين المجتمع الاول ، ما لهم حول ولا قوة في الارض الا الاعتصام بالعقيدة وبالله وحده ، نزلت تحفزهم إلى الامام ، وتبشرهم بأنهم سيكونون قوة عظمى ، تلتزم باجتناح الحروب التي يدفعها حب العظمة والضمخامة ، وكان إلى جانب ذلك ومن نفس المعين حفز الرسول أصحابه ببشريات تحققت كلها كما أوضحنا من قبل .

وجانب آخر من جوانب الدعوة يتصل اتصالا وثيقا بهذا التوجيه القرآني الذي رفع همم الأوائل من مجرد قلة مضطهدة إلى آفاق أمة تسيطر على مقدرات الأمم . . . ألا وهي التربية العسكرية والسياسية التي لا تستغنى عنها أمة يعدها الله لهذا الشأن العظيم .

وكان تشريع الصلاة بمثابة التربية العسكرية إلى جانب كونه وسيلة دائمة لترسيخ العقيدة وإعلانها فوق كل اعتبار . فإعلان وقت الصلاة بمثابة النوبة العسكرية التي يستجيب لها جميع الجنود على الفور . واختيار بعض أوقاتها من الأوقات التي تتراخى فيها الأجساد كالقجر والعصر هو نفس الطريقة التي لجأ إليها العسكريون المحدثون ، وصفوف الصلاة بنظامها المشروع هي نفس الصفوف العسكرية ، واشتراط الطهارة في مواجهة اشتراط البزة العسكرية المحكمة في المعسكرات دون نظر إلى النجس الذي تنطوي عليه ، وإعلان الولاء في صف الصلاة لله وحده في مواجهة إعلان الولاء لرأية الدولة وشعارها . ويتفوق الاسلام على جميع النظم العسكرية هنا بالاعتماد على الباعث القلبي والوجداني الإيماني في تنفيذ الأوامر ، وبأن المطالبين بالمسارعة إلى الصلاة هم العقلاء من الأمة من سن العاشرة إلى ما لا نهاية له من العمر ، رجالا ونساء ، فالأمة كلها في الاسلام معجدة على طريق الهدى والإيمان .

وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة وما صاحبها من مؤامرات قريش للإيقاع بالمهاجرين بمثابة التدريب السياسي على التعامل مع الأمم الأخرى دون المساس بالعقيدة ، حتى لقد نجح المهاجرون نجاحا منقطع النظير في الجهر بقول القرآن في المسيح أمام النجاشي الذي خشع قلبه للقرآن .

وعلى هذا فقد كانت الدعوة فى أول عصر النزول بمكة تعديلا للنظام
العسكرى الجاهلى ، وتربية للعقيدة فى قلوب المؤمنين ، وتأسيسا لمجتمع
الاسلام البرىء من العنصرية والقبلية ، وتدريباً للسابقين على احكام التعامل
مع الأمم الاخرى . وما كانت الهجرة الى المدينة الا وقد استكمل المسلمون
صلاحيتهم للعمل والاستقلال بسياسة الأمة ، فاستحكم أمرهم ، وأصبحت
العقيدة هى المثل الأعلى الذى يتسابقون الى الشهادة فى سبيله ، بعد أن كانوا
يبدلون دماءهم فى سبيل المفاخر الزائلة .

أما نزول القرآن بالمدينة فقد أوضح الامام السيوطى أسرار شطر كبير
منه حينما تكلم عن سر ترتيب سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة
وأثر هذا الترتيب فى امتداد الأمة ، وخروجها من حيز تربية العقيدة الى
التربية السياسية الشاملة .

وخلاصة القول : أن نزول القرآن بالمدينة كان يهدف الى تكوين دولة
الاسلام بكل مقوماتها فى مواجهة دولة الكفر بكل مقوماتها فى مكة . وكان
الصراع بين هذين النموذجين لدولة الاسلام ودولة الكفر تدريباً حكيماً بالغ
الحكمة على الصراع بين أمة القرآن وأمم الكفر على سطح الأرض خارج الجزيرة
العربية . وكانت عوامل النصر وعوامل التخاذل ، واحكام الأبعاد السياسية
فى أيام الحندق وأيام الحديبة وأمثالهما من المواقف الاسلامية السياسية هى
روح الاسلام فى السياسة . تلك الروح التى تقسّس العهد ، وتجنح الى
السلم ان جنح اليه العدو ، ولا تقدم على الحرب الا دفاعاً عن النفس ،
وافساحاً لطريق الدعوة ان عاقته قوى الكفر . وكانت تشريعات الحلال والحرام
والفرائض الأخرى حماية للنفس فى زحمة الحياة ، وتعقد الأعمال من شطط
الهوى ، وسلطان الشيطان ، وحفظاً لسلطان الايمان على القلوب من أن
تطفئ عليه الانتصارات ، أو تحد من فاعليته زهرة الحياة فى الأمم المغلوبة .

وهكذا نلمس الحكمة المعجزة والبليغة فى دعوة القرآن ، وفى ترتيب
القرآن فى المصحف وما فيه من دلالة على أنه دستور أمة استكملت مقوماتها ،
وبقى عليها أن تدرك أسلوب العمل الدينى والسياسى فى العالم على هدى
هذا الترتيب .

الاسم السيوطي وكتاب

عاش العالم الاسلامي في محنة قاسية منذ غامت شمس الخلافة العباسية بتسلط الجانب الاحادي من الاعتزال على رأسها ممثلا في المأمون وفي القول بخلق القرآن ، ثم تكاثفت الغيوم بعد ذلك بفعل الترف والمجون ، وخمود الوجدان الديني ، والصراع بين الثقافات المتعارضة التي اتخذت من أرض الاسلام ميدانا لها ، وانتهى الأمر بانحلال الخلافة العباسية ، وبلورة الصراع في صورة مشوهة أطلق عليها اسم الخلافة الفاطمية بمصر والمغرب ، قال ساداتها : انهم من بنى فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وفرضوا بالقوة على المسلمين لونا ممسوخا من الفلسفة وسموه علم أسرار الدين ، وأسندوا استاذيته لدهية اليهود يعقوب بن كلث ، وعانت مصر الأمرين من مظاهر الارهاب حينما كانت تعرض رهوس القتل على أسنة الرماح في طرقات القاهرة ، وحينما تشتد المجاعات نتيجة لاحتكار الخلفاء أقوات الناس ، واهتز اليقين في قلوب الناس بشيوع الخرافة حتى سجل أحد قضاة الشام أنه شهد ثورا يعلن نهاية المجاعات ، وحلول رضوان الله على الناس ، وخربت البلاد نتيجة لصراع العبيد والأتراك والذي كانت تديره جارية دسها تاجر رقيق يهودي لتكون حظية للخليفة الفاطمي ، وأما للخليفة المستنصر بالله . ولم يرض الترك الا ببيع أثار قصر الخلافة ، وفاء لحقوقهم التي كانوا يطالبون بها ، وانتهت الخلافة الفاطمية تاركة وراءها : الخراب ، والخرافة ، وأوهام الحاكم بأمر الله ، وآثار الفكر اليهودي المشبوه ، والذي كان نتيجة لتحالف قرمطي شيعي ، ما زالت بعض فلسفه تعمل في مجاهل العقول في ديار الاسلام .

وكان من الطبيعي أن يستولى المماليك العبيد الجنوبيون من أقاص آسيا على الحكم في مصر ، ولما كان هؤلاء المماليك فرسانا يحكم اقامتهم في المناطق

الجبيلية ، وكانوا يعانون من عقدة الهزيمة والرق ، فقد حققوا فروسيتهم فى التعصب للإسلام ، وصدد التتار عن دياره ، وفى الثورات التى لم تكن تخمد الا لتثور بين الأمراء ، وبين نيران تلك الثورات تخرب البلاد ، ويفقد الشعب مقومات حياته ، لا سيما وأن الأرض كانت اقطاعا للأمراء والجنود ، ولم يكن الفلاح المصرى سوى جهاز انتاج محروم مما تحظى به الآلات الأخرى من عناية واصلاح .

كانت دولة المماليك بمصر عامرة بالمناقضات . فبينما كان الأمراء يتصارعون فى عنف على شباب (الأويراتية) الذين كانوا يقيمون بالحسينية للممارسة الجنسية الشاذة ، ويجبون الضرائب من ضامئات المغاني ، وكن بمثابة القوادى آنذاك ، كانوا أكثر من أسلافهم الأيوبيين والفاطميين عناية بإنشاء المدارس والخوانق والربط والمكتبات ، واجلال العلماء ، ووضعهم موضع الصدارة ، ونظرة سريعة الى ما سجله المقرئى من تلك المنشآت فى المواعظ والاعتبار تلقى ضوءا كافيا على النهضة العلمية فى جميع فروعها فى ذلك العصر .

ولأمر ما أراده الله للإسلام ، وسنة سنه فى الخلق فى عصور التدهور السياسى ، والعدوان على الإسلام من الناحية العملية نبغ عدد كبير من العلماء ، ومؤلفى الموسوعات ، وحفاظ الحديث ، والمؤرخين ، والذين كانوا يجيدون التأليف فى فروع كثيرة من العلم ، وكان من هؤلاء ابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين العيني ، والسخاوى والبرهان البقاعى ، والسراج البلقينى ، والشيخ زكريا الانصارى ، وابن خلدون ، وجلال الدين عابد الرحمن السيوطى ، أحد أفراد الزمان علما وتحقيقا وحفظا ، وفقها واجتهادا فى مختلف الأصول والفروع .

ولد الامام السيوطى ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة . ويبدو أن أباه كان ذا ميول صوفية ، فقد حرص على حمله الى رجل من كبار الأولياء كان مجاورا للمشهد الحسينى يدعى أبا محمد المجذوب ، ليباركه ، وحفظ القرآن كما يحكى عن نفسه وهو ابن ثمانى سنين ، ويقول : أنه أجاز بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة ، أى وقد

بلغ من العمر سبعة عشر عاما . وفى هذه السن ألف شرحا للاستعاذة
وبالسلمة ، وعرضه على شيخه فى الفقه علم الدين البلقينى فكتب له عليه
تقريظا . ولزم العلامة سراج الدين البلقينى بعد وفاة والده علم الدين ،
وقرأ عليه عددا كبيرا من الكتب حتى أجازته بالافتاء والتدريس ، وحضر حفل
تصديده سنة ست وسبعين وثمانائة ، وله من العمر سبعة وعشرون
عاما .

ولما مات شيخه السراج البلقينى لزم الامام الصالح شرف الدين المناوى،
وواصل عليه دراسة الفقه .

ثم لزم فى الحديث والعربية العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى ، وواظب
على دروسه حتى مات ، فلزم الشيخ محيى الدين الكافيجى ، الذى وصفه
بأنه أستاذ الوجود ، ودرس على يديه التفسير ، والاصول ، والعريضة ،
والمعانى ، أربع عشرة سنة . ثم درس على الشيخ سيف الدين الحنفى التفسير
وعلمو البلاغة .

ولقد رحل السيوطى فى طلب العلم الى الشام ، والحجاز ، واليمن ،
والهند ، والمغرب ، وبلاد التكرور . ويقول : انه لما حج شرب ماء زمزم
لامور منها : أن يصل فى الفقه الى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلانى . وعقد
مجلس املاء الحديث فى مستهل سنة ائنتين وسبعين وثمانائة ، أى وعمره
ثلاثة وعشرون عاما .

ويقول السيوطى : انه رزق التبخر فى سبعة علوم : التفسير ،
والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبديع ، والبيان على طريقة العرب ،
لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، ويعتقد أنه وصل فى هذه العلوم السبعة
سوى الفقه الى رتبة لم يصل اليها أشياخه . ولكنه يعود فيقول فيما يروى
عنه الشعرانى فى طبقاته الصغرى : انه وصل فى الفقه الى مرتبة الاجتهاد
الداخلى فى مذهب الشافعى ، وأن لترجيحه رأيا على رأى حجية المجتهد .

ولعل ما نلمسه واضحا فى حديث السيوطى عن نفسه من اعتداد
بعلمه ونسبة التفوق الى نفسه راجع الى عنصر الطموح المبكر الذى صاحب
تفوقه بالفعل ، اذ أنه طلب العلم وألف فيه فى سن مبكرة ، وقرأ الآلاف

من الكتب ، وانقطع للعلم بالفعل ، حتى شغله ذلك عما شسغل غيره من العلماء ، من التهافت على أبواب الحكام ومجالسهم يلتمسون زيف الشهرة في تلك الرحاب الصناعية التي تضفى بريقا مؤقتا على أهلها لا يمت الى حقيقة العلم بوشيجة لها وزنها .

ومما دفعه الى الادلال بعلمه خبرته بأخلاق الكثير من علماء العصر ، وجنوحه عن منهجهم الى منهج أهل الاستقامة والصلاح والدأب في تحصيل العلم . فهو يقول في ختام كتابه (الاتقان) : وانى فى زمان ملا الله قلوب أهليه من الحسد ، وغلب عليهم اللؤم حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد ، غلب عليهم الجهل وطمهم ، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم ، قد نكبوا عن علم الشريعة ونسروه ، وأكبوا على علم الفلاسفة وتدارسوه ، يريد الانسان منهم أن يتقدم ويأبى الله الا أن يزيده تأخيرا . ومع ذلك لا ترى الا أنوفا مشمخرة ، وقلوبا عن الحق مستكبرة ، كلمة هديتهم الى الحق كان أصم وأعمى لهم . . . وأيم الله ان هذا لهو الزمان الذى يلزم فيه السكوت والمصير حلسا من أحلاس البيوت ، ورد العلم الى العمل لولا ما ورد فى صحيح الاخبار : « من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار » .

ولعل هذا الشعور الغالب على الامام السيوطى هو الذى دعاه الى اعتزال الناس فى منزله بالروضة من مدينة القاهرة ، والانقطاع للعبادة والتأليف ، حتى ألف فى ذلك كتابا سماه « التنفيس عن الفيتا والتدريس » .

لم يكن طموح السيوطى دعوى بلا برهان ، فقد ألف وأجاد وهو صغير السن ، اذ ألف كتابه « التحبير فى علوم التفسير » وسنه ثلاثة وعشرون عاما ، وعف عن ارتياد مجالس السلاطين ، بل ورد عطاءهم الذى توالى عليه ، وألف رسالة لعلماء عصره فى دحض مسلكهم الذى درجوا عليه من اللصوق بعطايا السلطان واعتابه ، حتى أنه لما مات لم يتعرض السلطانان الفورى لتركته وقال : لم يقبل الشيخ منا شيئا فى حياته ، فلا نتعرض لتركته بعد مماته ، وكان قد أرسل له عبدا وألف دينار ، فرد الدينار ، وأخذ العبد وأعتقه .

وقد تولى السيوطى بعض الأعمال الرسمية ، فقد تولى منصب الافتاء ،

ودرس بالمدرسة الشيعونية ، ثم بالمدرسة البيهرسية ، ولكنه أنف من تلك الأعمال الرسمية ، وعزف عنها ، وآثر الخلوة الى ربه وكتبه .

ولقد عد السيوطى فى مقدمة كتابه « حسن المحاضرة » مؤلفاته فبلغ بها ثلاثمائة كتاب ، فى التفسير والحديث ، والقراءات ، والفقه ، والتراجم ، والنحو ، والآداب ، والأجزاء المفردة . وقد بلغ « بركلمان » بكتبه أربعمائة وخمسة عشر كتابا ، وسجل له جميل العظم عددا ضخما من الكتب ، ولكن ابن اياس أبلغ عدد كتبه الى ستمائة كتاب .

وقد هاجم السيوطى عدد من علماء العصر ، منهم شمس الدين السخاوى فى الضوء اللامع ، وبرهان الدين ابن الكركى ، وابن الغليف ، وأحمد بن محمد القسطلانى ، ورماء هؤلاء بالسطو على كتب المكتبة المحمودية ونسبتها الى نفسه بعد التصرف فيها بالتقديم والتأخير .

وقد رد السيوطى على هؤلاء ردا عنيفا ، فكتب فى ذلك كتبها منها : الكاوى على تاريخ السخاوى ، والجواب الزكى على قامة ابن الكركى ، والقول المجمل فى الرد على المهمل . وانضم اليه كوكبه من تلاميذه فى الرد على خصومه ، منهم : قاسم الحنفى ، والسراج العبادى ، والفخر الدينى ، والأمين الاقصرائى ، والرحمانى ، وغيرهم .

ولنا بعد ذلك أن نضع الرجل فى الميزان ، لنجد قمة من شوامخ العلم والحفظ وتنوع الثقافة ، والإجادة فى الكثير جدا من الكتب ، فنحن أمام قمة كالدر المنثور ، والمزهر فى اللغة ، وتاريخ الخلفاء ، ومخطوطته الجامعة « البدور السافرة فى أحوال الآخرة » والجامع الكبير ، وعشرات من أمثالها نقف أمام الرجل فى اجلال واحترام واكبار . ولئن صحح - جدلا - أنه سطا على كتب غيره ونقل منها ، فقد أحيا لنا تراثا مفقودا تماما بما أوقفنا عليه من نقول هائلة من تلك الكتب ، فله الفضل على أى حال .

أقول : لنا أمام رجل اذا وزعت كتبه - التى لا زال العديد الهائل منها مخطوطا - على سنين عمره ، ثم على أيامها ، فاننا نقف أمام رجل أغرق حياته كلها فى العلم والتصنيف على صورة تعد من أعاجيب الزمان التى كان فى عصره نماذج منها كابن حجر والعينى ، وقبل عصره أمثلة لها كابن الجوزى وابن القيم ، فعليه رحمة الله دائما أبدا بما أسدى لبنى دينه وللانسانية كلها من خدمات يقصر عنها الثناء .

وفى ليل الجمعة فى التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى عشرة وتسعمائة أسلم السيوطى روحه الطاهرة الى بارئها ، ودفن بحوش قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة ، وما زال حيا بيننا بكتبه التى يرجع اليها الباحثون فى كل دقيقة من الزمان ، متعرضا بهذا الفضل لتفحات الرحمة الالهية المودعة لمن لم ينقطع عمله بعد موته .

كتاب تناسق الدرر واهميته :

اسم هذا الكتاب « تناسق الدرر فى تناسب السور » . وقد آثرنا تغيير اسمه على الوجه المثبت على واجهة هذه المطبوعة ، واثبات الاسم الاصلى فى داخله لسبب سنتحدث عنه فى منهج التحقيق .

ويوجد من هذا الكتاب نسخة واحدة بمصر ضمن مجموعة رقم ٤١٩ تفسير تيمور بدار الكتب المصرية ، ويقع فى اثنتين وثلاثين ورقة ، وعدد سطورها مختلف ، بين ثمانية وعشرين سطرا ، واثنين وثلاثين سطرا ، وهو مكتوب بخط بين النسخ والفارسى ، والنسخة جيدة ، ويبدو أنها نسخت فى عصر المؤلف ، كما يدل على ذلك نوع الحبر ، وطريقة الكتابة ، ويوجد بها بعض الاضطراب فى نصوص أمكن تقويمها من أصولها ، كحديث تحزيب القرآن الذى جاء على صورة مشوهة للغاية فى المخطوطة ، وكذلك بعض النقول الأخرى ، أما الأخطاء الأخرى فهى قليلة وهينة ، ولذلك لم نحتج الى اثباتها فى الهامش .

وقد سبق السيوطى فى التأليف فى هذا الباب فيما نعلم : أبو جعفر ابن الزبير فى « البرهان » ويقول السيوطى : انه لم يقف عليه . وفى عصره برهان الدين البقاعى فى « نظم الدرر » .

والكتاب كما يقول السيوطى - صادقا - من ولاد نظره ، ومحض تفكيره ، الا ما نقله عن غيره وعزاه اليه وهو قليل ، فهو فيما نرى تعقيب على كتاب البقاعى الكبير ، واستدراك عليه :

ويقول السيوطى : ان كتابه هذا عجلة من موسوعته الكبرى التى اثار اليها فى مقدمة هذا الكتاب ، والتى سماها « أسرار التنزيل » . ولم نعثر على أسرار التنزيل للسيوطى . وانما عثرنا على أسرار التنزيل للفخر الرازى ، وقد توفى الرازى عن الجزء الاول من أسراره ولم يكمله ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، ولم يشر اليه السيوطى رغم اعجابه بالفخر

الرازي الذي رده من خلال كتابه هذا . فالظاهر أن السيوطي أراد أن يكمل أسرار التنزيل للرازي ، أو يكتب كتابا باسمه ينهج فيه منهجا بعيدا عن اتعابه ، رغم أنه أشار الى مسائل في الاتقان قال : انه ذكرها في أسرار التنزيل ، مثل تحليل خروج سورة الروم والقلم عن سنن السور المفتحة بالحروف المقطعة في اتباع تلك الحروف بذكر القرآن أو وصفه .

كان الرجل مستجيبا لطموحه ، فبدأ في أسرار التنزيل ، وانتهى من منهج الرازي الجدلي ، ويعارض به موسوعة البقاعي ، ولكن الموت عاجله قبل الاتقان وما زال ماضيا في أسراره ، وكتب كتابه هذا الذي تقدمه كذلك أثناء سيره في أسراره ، اذ أنه أشار اليه في الاتقان مرارا ، وأشار الى الاتقان في هذا الكتاب مما يدل على أن السيوطي كان يعمل في تأليف عدد من الكتب مرة واحدة ، ولا ينقطع لكتاب حتى ينتهي منه ، وتلك سمة من سمات الطموح والتطلع والانقطاع للعلم وعلو الهمة .

ولقد انتهى من كتابة هذا الكتاب سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، وكان قد بلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما ، وقبل وفاته بثمانية وعشرين عاما . وعلى هذا فالغالب أن أسرار التنزيل له ، اما أنه لم يتمه ، وكان مشروعا من مشروعاته ، واما أنه أنهىه وفقد فيما فقد من التراث ، أو توارثه بعض أصحاب المكتبات الخاصة ، فإنه أعلم بمصيره .

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أهمية قضية التراث في عصرنا الحاضر من جهة ، ولى أهمية هذه الدراسة القرآنية من جهة أخرى .

أما التراث فيتعرض في عصرنا الحاضر لهجمات هزيلة من الأقزام العجزة ، وأهل الضحالة والقصور ، وأدعياء الفكر ، الذين يحكون انتفاخا صور العمالة ، وهم خواء على هواء في نسيج العنكبوت . قالوا : ان التراث يمثل عصره ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أمعنوا في السخف فقالوا : ان عقلية مؤلفي التراث عقلية ضحلة ضيقة ، ودعوا الى كتابات تمثل العصر ، ومواجهة المذاهب الهدامة الحديثة . واعتدل بعضهم فقال : ان انتقاء المفيد من التراث أمر ضروري ، على أن يعرض بأسلوب العصر . وما هذه الدعوة النشيمة الا استجابة لمخطط يهدف الى صرف العرب والمسلمين عن الأسس التي قامت عليها حضارتهم ، وتوجيههم الى لون من غناء الفكر لا يبدى ولا يعيد ، تكرار لا غناء فيه ، فقير في الجديد ، عاجز عن مواجهة مذاهب الهدم . فلو أنك أحصيت المكرر من الأفكار ، وحذفت من كتب العصر ، ومحوت الحشو من أساليب تلاميذ المدارس الثانوية ، لما بقي الا كلمات اما مسروقة من

التراث ، واما نتيجة لبعض التوجيهات التى خلفها علماء الجيل الماضى • وعلى العكس ، لا تجد كتابا يعارض كتابا آخر فى التراث الا وفيه زيادات مفيدة ، وتهذيب لسابقه • أما علاج مذاهب الهدم عن طريق الاساليب الخطائية ، واغفال بناء الذات المؤمنة من الجذور ، فمثله كمثل من يعالج المصذور بالمساحيق الملونة لوجهه بلون أهل الصحة والشباب ، ويترك (الميكروب) يفترس الذات دون هوادة •

وفوق كل ذلك فالتراث هو النسب والصهر بين المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ، وأصول حضارتهم ، والداعون إلى اغفاله كالداعين إلى إلغاء الشهادات المثبتة للانساب ، وأن يستبدل بها من تلك التى تحرر للقطماء المجهولى النسب • ومن هنا كانت أهمية التراث النفسية والعقلية التى لا ينكرها الا أهل الغفلة أو العملاء ، وهما شر مستطير وخطير •

وأهمية الدراسات القرآنية ترجع الى أهمية فرع من فروع التراث ، واليه ترجع أهمية هذا الكتاب ، فقد كثرت كتب التفسير التقليدية ، وأهملت الجوانب الأخرى التى لم تتعرض لها التفاسير ، أو لم تستوعبها مجتمعه ، كموضوع التكرار ، والترتيب ومقاصد القرآن ، وعجائب الاساليب والمشكلات • وهى موضوعات قد استغلها أعداء الاسلام أسوأ استغلال ، وفقد أهل العصر السلاح القوى الكفيل بحماية الشباب والشيوخ من آثار هذا الاستغلال •

لهذا كان هذا الكتاب من أهم ما يجب بعثه ودراسته ، الى جانب كتابنا الاول من سلسلة نوادر التراث ، وهو « أسرار التكرار فى القرآن » للكرمانى فهو يحسم القول فى مشكلة طال فيها الكلام هى ترتيب السور فى القرآن ، وقد ضيق السيوطى الخلاف حولها الى أضيق الحدود ، ورد عليها ، وساق كتابه دليلا على أن الترتيب توقيفى ، وأن القرآن بآياته وترتيبه وحى لا عمل للبشر فيه •

وقديما ذهب الامام بدر الدين الزركشى فى البرهان الى أن الخلاف فى هذه القضية لفظى « لأن النبى صلى الله عليه وسلم رمز اليهم بالترتيب ، لعلمهم بأسباب نزوله ، ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : انما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم ، مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم ، فقال الخلاف الى أنه : هل هو بتوقيف قولى ، أو بمجرد استناد فعلى ، بحيث بقى لهم فيه مجال نظرى • وسبقه الى ذلك أبو جعفر ابن الزبير •

منهج التحقيق :

بعد نسخ الكتاب من المخطوطة قمت بإجراء التحقيقات الآتية :

١ - تقويم الأخطاء اللفظية ، وتقويم الحلل الأسلوبى السواقع فى النصوص بالرجوع الى مصادرها من الحديث وأقوال العلماء ، حتى أصبحت فى صورتها الحقيقية .

٢ - مراجعة النصوص القرآنية على المصحف ، واثبات سورها وأرقام آياتها بين قوسين عقب الآيات .

٣ - اثبات الآيات التى أشار الى موضوعاتها المؤلف ولم يشبها من واقع المصحف ، تماما لفائدة القارئ ، وتوفيرا لوقته ، ووضعنا كل ذلك فى الهوامش .

٤ - اثبات ما فتح الله به من أسرار الترتيب مما لم يذكره المؤلف مؤيدا بالآيات .

٥ - تخريج الأحاديث والآثار ، ورد أقوال المفسرين الى مصادرها ، وكذلك أقوال العلماء ما أمكن ذلك . واثبات المصادر بأرقام أجزائها وصفحاتها .

٦ - ضبط الأعلام ، والتعريف بالمجهول منها .

٧ - وضع دراسة وافية للموضوع تناولت فيها عظمة القرآن ، وترتيبه النزولى والمصحفى ، وربطت بين الموضوعين ببيان الكثير من أسرار الترتيب التى لم يتعرض لها المؤلف ، فقد نظرنا الى الموضوع نظرة شاملة مرتبطة بحضارة الاسلام ، والاعتبارات النفسية والتربوية التى عنى بها القرآن ، واثبات الإعجاز القرآنى من خلال تلك الدراسة .

وهذا المنهج فى دراسة التراث قد اتبعته من قبل فى كتاب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) لأبى بكر الحلال ، واعتزمت بحول الله أن أتبعه فى كل ما أقوم بنشره ، حتى تتكامل الموضوعات ، ويفيد منها أكبر عدد ممكن من القراء والباحثين ، وحتى تحل مشكلة القصور فى أداء كتب التراث أهدافها كاملة ، فما كان لأهل القرون الماضية أن يدركوا ما سيجد بعد

عصورهم من قضايا الحياة حتى يعصموا المسلمين من آثارها ، وهو العمل
الذى قمنا به والحمد لله .

٨ - زدنا بعض كلمات أو جمل لتوضيح المعنى ، ووضعناها بين علامتين
هكذا (.) .

٩ - غيرنا عنوان الكتاب بما يتناسب مع العصر ، وبعدا عن الأسجاع
المألوفة فى عصر المؤلف .

والله نسأل العون على المضى فى رسالتنا هذه ، وأن يمكن لنا من
أسباب خدمة كتابه الكريم ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن
يرزقنا الاخلاص له وحده فيه ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يجزى عنا نبينا
ورسولنا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ما هو أهله ، وأن يلحقنا بحزبه ،
انه سميع قريب مجيب .

القاهرة فى { شعبان ١٣٩٦ هـ
اغسطس ١٩٧٦ م

عبد القادر احمد عطا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ وسلم

الحمد لله الذي أنزل كتابه المجيد على أحسن أسلوب ، وبهر بمحسن أساليبه
وبلاغة تركيبه القلوب ، نزه آيات بينات ، وفصله سوراً وآيات ، ورتبه بحكمته
البالغة أحسن ترتيب ، ونظمه أعظم نظام بأفصح لفظ وأبلغ تركيب ، صلى الله
على من أنزل إليه ليندو به وذكري ، ونزله على قلبه الشريف فنفي عنه الحرج
وشرح له صدرأ ، وعلى آله وصحبه مهاجرة ونصرأ . وبعد :

فإن الله سبحانه منّ علىّ بالنظر في مواقع نجومه ، وفتح لي أبواب النظر فيه إلى استخراج ما أودع فيه من علومه ، فلا أزال أسرّح النظر في بساطينه من نوع إلى نوع ، وأسْتَسْنِجُ^(١) الخاطر في ميادينه فيبلغ الغرض ويرجع وهو يقول : لا رَوْع ، فنقت^(٢) عن أنواع علومه ولقبها ، وأودعت ما أوعيت منها في دواوين وأعيانها ، وتقتب عن معادن معانيه وأبرزتها ، وأوقدت عليها نار القريحة وميزتها ، وألفت في ذلك جامعاً ومفرداً ، ومطناً ومقصداً^(٣) ، ومن خلق شيء إلىّ تبسّره ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره .

وإن مما ألفت في تعلقات القرآن كتاب « أسرار التزويل » الباحث عن أساليبه ، المبرز أعاجيبه ، المبين لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه ، الكاشف

(۱) استسبح خاطری : استقصیه . ای : تأمل به متحصا .

(۲) **فتحت من کذا : شققت منه وکشفت عن سره .**

(٣) مطلباً من الاطناب ، وهو : التطويل . ومقصداً من القصد ، وهو : الاختصار .

عن وجه إعجازه ، الداخذ إلى حقيقة من مجازه ، المطلع على أفانيه ، للبدء في تقرير حججه وبراهينه ، فإنه اشتمل على بضع عشرة نوعا .

الأول : بيان مناسبات ترتيب سورته ، وحكمة وضع كل سورة منها .

الثاني : بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها .

الثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها .

الرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي ميقت له ، وذلك براعة الاستهلال .

الخامس : مناسبة أوائل السور لأواخرها .

السادس : مناسبات ترتيب آياته ، واعتلاق بعضها ببعض ، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها .

السابع : بيان أساليبه في البلاغة ، وتنويع خطابه وسياقته .

الثامن : بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها ، كالمستعارة ، والسكنائية ، والتعريض ، والالتفات ، والتورية ، والاستخدام ، واللف والنشر ، والطباق ، والمقابلة ، وغير ذلك . والمجاز بأنواعه ، وأنواع الإيجاز والإطناب .

التاسع : بيان فواصل الآي ، ومناسبتها للآي التي ختمت بها .

العاشر : مناسبة أسماء السور لها .

الحادي عشر : بيان وجه اختيار مرادفاته دون سائر المرادفات .

الثاني عشر : بيان القراءات المختلفة ، مشهورها وشاذها ، وما تضمنته من المعاني والعلوم ، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه .

الثالث عشر : بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات في القصص وغيرها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، وإبدال لفظة مكان أخرى ، ونحو ذلك .

وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً في نوع خاص من هذه الأنواع ، هو :
مناسبات ترتيب السور ، ليكون عجلة لمريده ، وبغية لمستفيده ، وأكثره من
نتائج فكرى ، وولاد نظرى ، لقلة من تكلم في ذلك ، أو خاض في هذه
المسالك ، وما كان فيه لغيرى صرحت بعزوه إليه ، ولا أذكر منه إلا
ما استحسن ، ولا انتقاد عليه ، وقد كنت أولاً سميت « نتائج الفكر في تناسب
السور » لكونه من مستنتاجات فكرى كما أشرت إليه ، ثم عدلت وسميته
« تناسق الدرر في تناسب السور » لأنه أنسب بالمسمى ، وأزيد بالجناس .

وبالله تعالى التوفيق ، وإياه أسأل حلاوة التحقيق ، بمنه وبمنه .

* * *

مقدمة

في ترتيب السور

اختلف العلماء في ترتيب السور ، هل هو بتوقيف من النبي ﷺ ، أو باجتهاد من الصحابة ، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي ، والقطع بذلك . فذهب جماعة إلى الثاني ، منهم : مالك ، والقاضي أبو بكر في أحد قوليهِ ، وجزم به ابن فارس .

ومما استدل به لذلك : اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف علي ، كان أوله « اقرأ » ثم البواقى على ترتيب نزول المسكى ، ثم المدنى ، ثم كان أول مصحف ابن مسعود « البقرة » ثم « النساء » ثم « آل عمران » على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبي بن كعب وغيره ، على ما بينته في الإتيان^(١) .

وفي المصاحف لابن أشته بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطول^(٢) . وذهب جماعة إلى الأول ، منهم : القاضي أبو بكر في أحد قوليهِ ، وخلائق قال أبو بكر بن الأنباري : أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه في بضع

(١) انظر هذا الخلاف في المصاحف في الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ٥١/١ . والانتان : ٢١٦/١ وفيه أن ابن فارس يجزم بترتيب الطول والمئين والمفصل بالتوقيف . أما وضع كل مجموعة تلو الأخرى فمن الصحابة .

(٢) انظر الانتان : ٢١٦/١ . من طريق اسماعيل بن عياش الى أبي محمد القرشي . واسماعيل فيه كلام (الضعفاء . من اسمه اسماعيل) . وابن أشته هو محمد ابن عبد الله بن أشته أحد العلماء بالمروية والقراءات ألف في المصاحف وشواذ القراءات توفي سنة ٣٠٦ (طبقات القراء : ١٨٤/٢) .

وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل ، والآية جواباً لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فانساق السور كانساق الآيات والحروف ، كان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن^(١) .

وقال الكرمانى فى البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى فى اللوح المحفوظ ، وهو على هذا الترتيب ، وكان يعرض النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل ما اجتمع لديه منه ، وعرضه صلى الله عليه وسلم فى السنة التى توفى فيها مرتين^(٢) . وكذا قال الطيبى .

وقال ابن الحصار^(٣) : [ترتيب السور]^(٤) ، ووضع الآيات موضعها إما كان بالوحي .

وقال البيهقى فى المدخل : كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتباً سورة وآياته على هذا الترتيب ، إلا الأنفال وبراعة للحديث الآتى فيها . ومال ابن عطية إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها فى حياته ، صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال ، والخواصم ، والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى منها القليل يمكن أن يجرى فيه الخلاف ، أقوله صلى الله عليه وسلم : « اقرأوا

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٦٠/١ وأسرار التكرار فى القرآن ص ٢٣ . والانتان : ٢١٧/١ .

(٢) الكرمانى : محبوب بن حمزة بن نصر . وكتابه « البرهان » نشرناه باسم « أسرار التكرار فى القرآن » بدار الاعتصام بالقاهرة . انظر ص ٢٣ .

(٣) ابن الحصار وهو : على بن محمد بن محمد بن إبراهيم الخزرجى الاشبيلى . له مؤلفات منها : أصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ ... توفى سنة ٦١١ هـ (التكملة لابن الأبار ٦٨٦) .

(٤) ما بين الحاميرين زدناه من الانتان : ٢١٦/١ .

الزهرائين البقرة وآل عمران . رواه مسلم^(١) . وكحديث سعيد بن خالد أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالسبع الطوال في ركعة ، وأنه كان يجمع المفصل في ركعة . أخرجه ابن أبي شيبة^(٢) . وأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين . أخرجه البخاري^(٣) وفيه عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهم من السِّتاق الأول ، وهنَّ من تِلادى »^(٤) .

وقال أبو جعفر النحاس : اختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحديث : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفُضِّلَت بالمفصل » . أخرجه أحمد وغيره^(٥) . قال : فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه من هذا الوقت هكذا .

وقال الحافظ ابن حجر : ترتيب معظم السور توقيفي ، لحديث أحمد وأبي داود عن أوس التقي قال : كنت في وفد ثقيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طرأ على حزبي من القرآن ، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه » . قال أوس : فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزُّ به ثلاث سور ،

- (١) أخرجه مسلم في فضائل القرآن مطولاً عن أبي أمامة الباهلي : ١١٣/٢ . وأبو داود : ٨٨/١ ، ٨٩ مختصراً والهيثمى في مجمع الزوائد عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم يقرأ البقرة وآل عمران والنساء : ٢٧٢/٢ وعزاه إلى أبي يعلى .
- (٢) حديث (السبع الطوال) أخرجه أيضاً الهيثمى في مجمع الزوائد : ١٦٢/٧ بلفظ (من أخذ السبع الطوال فهو خير) وعزاه للبزار وأحمد . وأخرج رواية أخرى ٢٧٤/٢ أنه قرأ السبع الطوال في ليلة .
- (٣) وحديث (كان يقرأ المفصل في ركعة) أخرجه مسلم في فضائل القرآن : ٢٠٤/٢ عن عبد الله بن مسعود مطولاً وفيه (عشرون سورة من المفصل في ركعة) . والبخاري في التفسير : ٢٤٠/٦ وفيه (ثمانى عشرة سورة من المفصل) .
- (٤) أخرجه البخاري في التفسير عن عائشة : ٢٢٣/٦ . والترمذي في التفسير : ٢٤٧/٦ ، ٢٤٨ بتحفة الاحوذى . وفيه أنه كان يجمع يديه ، وينثث فيهما ، ويقرأ ، ويمسح بهما ما استطاع من جسده .
- (٥) أخرجه البخاري في التفسير : ١٨٩/٦ . والعناني : اللاتى نزلن قديماً بمكة . والتلاد : التقديم .
- (٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ١٢٤/٢ عن وائلة بن الأسقع . والهيثمى في مجمع الزوائد : ١٥٨/٧ وعزاه للطبراني أيضاً من وائلة وأبي أمامة .

وخمس سور ، وسبع سور . وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة سورة ، وحزب للفصل ، من « ق » حتى نَحْمُ^(١) .

قال : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر من حكيم .

الأول : بحسب الحروف ، كما في الحواميم ، وذوات (الر) .

الثاني : لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها . كآخر الحمد في المعنى . وأول البقرة .

الثالث : الوزن في اللفظة . كآخر (تبت) وأول (الإخلاص) .

الرابع : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى ، كالضحى وألم نشرح .

وقال بعضهم : إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة التي قبلها ، ثم يخفى تارة ، ويظهر أخرى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ربيعة : أنه سئل : لم قدمت البقرة وآل عمران . وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة . وإنما نزلنا بالمدينة ؟ فقال : قدمت ، وألف القرآن على علم من ألفه . وقد اجتمعوا على علمهم بذلك . فهذا مما ينتهي إليه . ولا يُسأل عنه^(٢) .

فإن قلت : فما عندك في ذلك ؟

قلت : الذي هندي أولا : لتحديد محل الخلاف ، وأنه خاص بترتيب سور

(١) أخرجه أبو داود : ١٤٠/١ وفيه (وحزب الفصل وحده) . والإمام أحمد في المسند ٤٣/٥ . والحديث مضطرب في الأصل ، وصحناه من أبي داود .

(٢) نقل القرطبي في تفسيره : ٥٢/١ هذا الخبر ، وعزاه إلى ابن وهب في جامعه والنص مضطرب في الأصل ، وقومناه من القرطبي .

الأقسام الأربعة ، وأما نفس الأقسام الأربعة ، من تقديم الطوال ، ثم المثني ، ثم المثاني ، ثم المفصل ، فهذا ينبغي أن يقطع بأنه توقيفي ، وأن يدهى فيه الإجماع ، وإن لم أر من سبقني إلى ذلك . وإنما دعاني إلى هذا أمران :

أحدهما : ما تقدم من الأحاديث قريبا ، وحديث ابن عباس الآتي في الأنفال .

والثاني : أن المصاحف التي وقع فيها الاختلاف في الترتيب اتفقت على ذلك ، فإن مصحف أبي بن كعب وابن مسعود كلاهما قدم فيه الطوال ، ثم المثاني ، ثم المفصل ، كمحصف عثمان ، وإنما اختلفا في ترتيب سور كل قسم كما بينت في الإتيان ^(١) .

فإذا تحرر ذلك ، ونظرنا إلى محل الخلاف ، فالتحتمار عندي في ذلك : ما قاله البيهقي ، وهو : أن ترتيب كل السور توقيفي ، سوى الأنفال وبراعة .

ومما يدل على ذلك ويؤيده : توالي الحواميم ، وذوات (الر) ، والفصل بين المسبحات ، وتقديم (طس) على القصص ، مفصلا بها بين النظيرتين [طسم الشعراء ، وطسم القصص] في المطلع والطول ، وكذا الفصل بين الإنفطار والإشفاق بالمطففين ، وهما نظيرتان في المطلع والمقصد ، وهما أطول منها ، فلولا أنه توقيفي لحكمة لتوالى المسبحات ، وأخرت (طس) عن القصص ، وأخرت (المطففين) أو قدمت ، ولم يفصل بين (الر) و(الر) .

وليس هنا شيء أعارض به سوى اختلاف مصحف أبي وابن مسعود ، ولو كان توقيفيا لم يقع فيها اختلاف ، كما لم يقع في [ترتيب] الآيات .

(١) الإتيان : ٢٢٢/١ — ٢٢٤ نقلا من ابن اشته في المصاحف من راويه أبي جعفر .

الكوفي وجريير بن عبد الحميد .

وقد من الله على بجواب لذلك نفيس ، وهو : أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرا للرسم ، حتى لسور كاملة ، وآيات كثيرة ، فلا بدع أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرصة الأخيرة ، كالقراءات التي في مصحفه ، ولم يبلغ ذلك أيبا وابن مسعود ، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني ، ولذلك كتب أبي في مصحفه سورة الحقد ، والخلم ، وهما منسوختان ^(١) .

فالخاص أني أقول : ترتيب كل المصاحف بتوقيف ، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات العثمانية ، ورتب أولئك على ما كان عندهم ، ولم يبلغهم ما استقر ، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبتة في مصاحفهم بتوقيف ، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات المنسوخات ، ولم يبلغهم النسخ .

* * *

« سورة الفاتحة »

افتتح مبيحانه كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس ^(٢) . فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال .

قال الحسن البصري : إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن ،

(١) : الاتقان : ٢٢٣/١ ، ٢٢٦ من ابن اشته في المصاحف وهما سورتا القنوت في الوتر ، قال الحسين بن المنادي في كتابه الناسخ والمنسوخ : وبما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر ، وتسمى بسورتى الخلع والحقد (الاتقان : ٨٥/٢) . وهي :

(اللهم انا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم اياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، واليك نسعى ونخمد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، ان عذابك الجد بالكفار ملحق وانظر (مجمع الزوائد : ١٢٠/٩) .

(٢) : الكشف : ٤/١ بولاق . ومن أسمائها : السبع المثاني ، والقرآن العظيم ، والوافية ، والكثر (الاتقان : ١٨٩/١ - ١٩١) .

ثم أودع علوم القرآن في المفصل ، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان^(١) .

وبيان اشتغالها على علوم القرآن قرره الزنجشري ، باشتغالها على الثناء على الله بما هو أهله ، وعلى التبعيد ، والأمر والنهي ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور^(٢) .

قال الإمام فخر الدين : المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة : الإلهيات ، والمعاد ، والنبوات ، وإثبات القضاء والقدر . فقوله : (الحمد لله رب العالمين) يدل على الإلهيات ، وقوله : (مالك يوم الدين) يدل على نفى الجبر ، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره . وقوله : (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة ، التي هي المقصد الأعظم من القرآن^(٣) .

وقال البيضاوي : هي مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ، ومنازل الأشقياء^(٤) .

وقال الطيبي : هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين : أحدها : علم الأصول ، ومعاينة معرفة الله عز وجل وصفاته ، وإليها

(١) الشعب : ٢ : ورقة ٨٧ . ا . دار الكتب المصرية .
(٢) انظر : الكشف : ٤/١ وفيه (التبعيد بالامر والنهي) .
(٣) مفاتيح الغيب : ٦٥/١ .
(٤) تفسير البيضاوي : ٢٥/١ بحاشية الشهاب الخفاجي .

الإشارة بقوله : (رب العالمين • الرحمن الرحيم) . ومعركة المعاد ، وهو الموما إليه بقوله : (مالك يوم الدين) .

وثانيها : علم ما يحصل به الكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية ، والالتجاء إلى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله : (أنمت عليهم غير المفضوب عليهم ولا الضالين) .

قال : وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة ، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلا ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سبق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق ^(١) .

وقال الغزالي في « خواص القرآن » : مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة تنمة .

الأولى : تعريف المدهو إليه ، كما أشير إليه بصدورها ، وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها ، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير إليه بقوله : (مالك يوم الدين) .

والأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله . (الذين أنمت عليهم) . وتعريف منازل الطريق ، كما أشير إليه بقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) ^(٢) .

(١) الطيبي هو : الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي الإمام المشهور ، واحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة . توفي عام ٧٤٣ هـ . انظر (الدر الكامنة لابن حجر : ١٥٦/٢ ، والبدر الطالع للشوكاني : ٢٢٩/١ . وبغية الوعاة للسيوطي : ٢٢٨ . وكلاهما هذا في شرح الكشاف له . مخطوط بالأزهرية : ح ١ ورقة ٢٩ .

(٢) خواص القرآن الكريم ص ٢٧

« سورة البقرة »

قال بعض الأئمة : تضمنت سورة الفاتحة : الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها في دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى ، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها .

فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها كثير من التشابه لما تمسك به النصارى .

فأوجب الحج في آل عمران ، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع ، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه ^(١) . وكان خطاب النصارى في آل عمران ، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر ^(٢) كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء ، فخطب به جميع الناس ، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، فخطبوا بها أهل الكتاب ، يابني إسرائيل ، يا أيها الذين آمنوا .

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس ، وهي نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحت بقوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) . وقال :

(١) وذلك في قوله تعالى : (واتقوا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ١٩٦) الآية . من سورة البقرة .

(٢) ثبت في التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاهد اليهود وأخرجهم من دار الإسلام ، ولم يحدث مثل ذلك للنصارى وإنما بدأت مجادلة إياهم بوفد نجران الذي تحدثت عنه سورة المائدة . وأخرج الهيثمي في مجمع الزوائد أنه قال لعلى : « يا على ، إن أنت وليت هذا الأمر بعدى ، فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب » يريد النصارى (١٢٠/١) .

(فأتقوا الله الذى تساطون به والأرحام) .^(١) فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة ، والافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتوح بها ما فى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام ، وأن ابتداء هذا الأمر بخلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم بث منهما رجلاً كثيراً ونساء فى غاية الكثرة .

أما المائدة فسورة العقود ، تضمنت بيان تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، ونهاية الدين ، فهى سورة التكميل ، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم ، الذى هو من تمام الإحرام . وتحريم الخمر ، الذى هو من تمام حفظ العقل والدين . وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين ، الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطيبات ، الذى هو من تمام عبادة الله ، ولهذا ذكر فيها ما يخص بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتيمم ، والحكم بالقرآن على كل ذى دين . ولهذا كثرت فيها لفظ الإكمال والإتمام^(٢) . وذكر فيها : أن من ارتد عوض الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملاً ، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل^(٣) لما فيها من إرشادات الختم والتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنية من أحسن الترتيب : انتهى .

وقال بعضهم : افتتحت البقرة بقوله : (ألم ذاك الكتاب لاريب فيه)^(٤) فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم فى قوله [فى الفاتحة] : (إهدنا الصراط المستقيم) . فإنهم لما سألوا [الله] الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتهم الهداية إليه ، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث على

(١) وذلك فى قوله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى) وأمثالها .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرک عن عائشة : ٢١١/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين ،

ولم يخرجاه والامام احمد فى المسند - عن معاوية بن صالح عن عائشة : ١٨٨/٦

مرفوعاً : « الصراط المستقيم كتاب الله » (١) . وأخرجه الحاكم في المستدرك
عن ابن مسعود موقوفاً (٢) .

وهنا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط البقرة بالفاتحة .

وقال الخوي (٣) : أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن
الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : هذا
الكتاب هدى لكم فاتبعوه ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول .
ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكروهم في
الفاتحة : فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم . والذين اشتروا
الضلالة بالهدى ، وهم الضالون : والذين باءوا بفضب من الله ، وهم الغضوب
عليهم (٤) . انتهى .

أقول : قد ظهر لي بحمد الله وجوهاً من هذه المناسبات :

أحدها : أن القاعدة التي استقر بها القرآن : أن كل سورة تفصيل لإجمال
ما قبلها ، وشرح له ، وإطناب لإيجازه . وقد استقر معي ذلك في غالب سور
القرآن ، طويلاً وقصيراً . وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع
مجملات الفاتحة .

فقوله : (الحمد لله) . تفصيله : ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات
ومن الدعاء في قوله : (أجيب دعوة الداع إذا دعان) « ١٨٦ » الآية . وفي
قوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما
حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واعف لنا

(١) أخرجه ابن جرير عن علي بن حديث حصة الزيات . جامع البيان : ١٧٢/١

(٢) المستدرك : ٨٣/٤

(٣) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس . توفي بدمشق عام ٦٢٧ انظر
عيون الأنباء : ١٧١/٢ ، شذرات الذهب : ٢٥/٣ .

(٤) فكر السبوطي : أن للخوي تفسيراً نقل عنه في الاثنان (٧/٢ ، ١٢ ، ٢٩/٣ و
١٤٤/٤) ولم نعتبر عليه ، ولعل هذا النقل منه .

وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦) . وبالشكر في قوله : (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (١٥٢) .

وقوله : (رب العالمين) تفصيله قوله : (اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) (٢١ ، ٢٢) . وقوله : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) (٢٩) . ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر ^(١) ، وهو أشرف الأنواع من العالمين ، وذلك شرح لإجمال (رب العالمين) .

وقوله : (الرحمن الرحيم) . قد أومأ إليه بقوله في قصة آدم : (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) (٥٤) . وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة [بقوله : (وارزق أهله من الثمرات من آبن) (١٢٦)] . فقال : (ومن كفر فأمتعه قليلاً) (١٢٦) .

وذلك لكونه رحماناً . وما وقع في قصة بني إسرائيل : (ثم عفونا عنكم) (٥٢) . إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله : (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (١٦٣) . وذكر آية الدين ^(٢) إرشاداً للطالبين من العباد ، ورحمة بهم . ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا طاقة لهم به ، وختم بقوله : (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) (٢٨٦) . وذلك شرح قوله : (الرحمن الرحيم) .

(١) وذلك في قوله : (واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) الى قوله : (فنلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه - « ٢٠ - ٢٧ » .

(٢) من قوله : (يا ايها الذين آمنوا اذا تدانتم بين انفسكم فليكن بينكم حديث الى اجل يسمى فاكذبوه - (٢٨٢) الآية .

وقوله : (مالك يوم الدين) . تفصيله : ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة . واضح ، ومنها قوله : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ٢٨٤) . والدين [في الفاتحة] : الحساب [في البقرة] .

وقوله : (إياك نعبد) مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية ، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل ، فذكر فيها : الطهارة ، والحيض ، والصلاة ، والاستقبال ، وطهارة المكان ، والجماعة ، وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع ، والعيد ، والزكاة بأنواعها ، كالنبات ، والمعادن ، والاعتكاف ، والصوم وأنواع الصدقات ، والبر ، والحج ، والعمرة ، والبيع ، والإجارة ، والميراث والوصية ، والرديعة ، والنكاح ، والصدقات ، والطلاق ، والخلع ، والرجعة والإيلاء ، والعدة ، والرضاع ، والنقثات ، والقصاص ، والديات ، وقتال البغاة والردة ، والأشربة ، والجهاد ، والأطعمة والذبائح ، والأيمان ، والنذور ، والقضاء ، والشهادات ، والعنق .

فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة في هذه السورة .

وقوله : (وإياك نستعين) . شامل لعلم الأخلاق . وقد ذكر منها في هذه السورة الجمل الغفير ، من التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتفويض ، والذكر ، والمراقبة ، والخوف ، وإلانة القول .

وقوله : (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخره . تفصيله : ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ، ومن حاد عنهم من النصارى ، ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم ، فهي من صراط الذين أنعم عليهم ، وقد حاد عنها اليهود والنصارى . وما ، ولذلك قال في قصتها : (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) (١٤٢) . فتنبها على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه .

ثم ذكر : (ولئن أتيت للذين أتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) (١٤٥) . وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم .
ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم . ثم قال : (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) (٢١٣) . فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة .

وأيضا قوله أول السورة : (هدى للمتقين) (٢) إلى آخره في وصف الكتاب ، إخبار بأن الصراط الذي سألوا الهداية إليه هو : ماتضمنه الكتاب ، وإنما يكون هداية لمن اتصف بما ذكر [من صفات للمتقين] . ثم ذكر أحوال الكفرة ، ثم أحوال المنافقين ، وهم من اليهود ، وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد بالكتاب ^(١) .

وكذلك قوله هنا : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأصفياء) (١٣٦) . الآية . فيه تفصيل النبيين النعم عليهم . وقال في آخرها : (لا نفرق بين أحد منهم) (١٣٦) . تعريفا بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء . ولذلك عقبها بقوله : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) (١٣٧) . أي : إلى الصراط المستقيم ، صراط النعم عليهم كما اهتديتم .

فهذا ما ظهر لي ، والله أعلم بأسرار كتابه .

الوجه الثاني : أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود ،

(١) هذا تفصيل للصراط المستقيم عن طريق التبصير بأعداء الصراط المستقيم ، والتحذير منهم على وجه التفصيل . وسبب تفصيل للصراط المستقيم في آل عمران عن طريق التبصير بالمعاني النفسية التي تحول دون الإنسان وسلوك الصراط المستقيم باعتبار النفس عدوا للإنسان . وبهذا تظهر عظمة الأسلوب القرآني في الإجمال والتفصيل ، وفي استيعابه كل شيء .

والضالين بالنصارى^(١) ، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان ، فعقب بسورة البقرة ، وجميع ما فيها [من] خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب^(٢) .

ثم [عقبت البقرة] بسورة آل عمران ، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى ، فإن ثمانين آية من أولها نازلة في وفد نصارى نجران ، كما ورد في سبب نزولها^(٣) وختمت بقوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) (١٩٩) . وهي في النجاشي وأصحابه من مؤمنى النصارى ، كما ورد به الحديث^(٤) . وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين ، كأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين ، قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ، ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود ، وآخرها في ذكر النصارى^(٥) .

الوجه الثالث : أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ، ولهذا سميت في أثر : فسطاط القرآن^(٦) . الذي هو : للمدينة الجامعة ، فناسب تقديمها على جميع سوره .

الوجه الرابع : أنها أطول سورة في القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال^(٧) ، فناسب البدأة بأطولها .

- (١) أخرج أحمد في مسنده : ٣٧٨/٤ والترمذي : ٢٨٦/٨ — ٢٨٨ بتحفة الأحوذى تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للمقبضين عليهم والضالين باليهود والنصارى من عدى بن حاتم . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤٦/١ .
- (٢) وانما جاء على أسلوب الخبر ، كقوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصبيان والنصارى من آمن بالله واليو الآخر — (٦٢) . وقوله : (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى — (١١١) الآية .
- (٣) انظر تفسير القرآن العظيم : (٤٠/٢) لمعرفة سبب النزول ، وقصة وفد نجران في (سيرة ابن هشام : ٥٧٢/١) وما بعدها .
- (٤) في اسلام النجاشي . انظر البخارى في الجائز : ١٠٨/٢ . ومسلم في الجائز : ٥٤/٢ ، ٥٥ . وانظر تفسير الطبري : ٤٩٦/٧ .
- (٥) وذلك قوله في النساء : (من الذين هادوا يحرمون الكلم عن مواضعه — (٤٦) وما بعدها . وآخرها قوله : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله — (١٧١) الآية .
- (٦) أخرجه الدارمي : ٤٤٦/٢ من خالد بن معدان .
- (٧) السبع الطوال هي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والانعام ، والاعراف ويونس ، وسبب وضع الاتفال والتوبة بينها .

الوجه الخامس : أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب البدعة بها ، فإن للأولية نوحاً من الأولوية .

الوجه السادس : أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بالأل يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً ، ختمت سورة البقرة بالدعاء بالأل يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، ومالا طاقة لهم به تفصيلاً ، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله : (لا نفرق بين أحد منهم) (٢٨٥) فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع ، وذلك من وجوه المناسبة في التتالي والتناسق . وقد ورد في الحديث الثامن في آخر سورة البقرة كما هو مشروع في آخر الفاتحة ^(١) ، فهذه ستة وجوه ظهرت لي ، والله الحمد والمنة .

« سورة آل عمران »

قد تقدم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها .

قال الإمام : لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة ، وكل كلمة لها ، افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح في منطوق مطلعها بما طوى في مفهوم تلك ^(٢) .

وأقول : قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات .

أحدها : مراعاة القاعدة التي قررتها ، من شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها ، وذلك هنا في هذه مواضع .

(١) كان معاذ بن جبل يقول : (آمين) آخر البقرة كما أخرج عنه ابن جرير . رواه ويحيى بن سليمان ، عن أبي إسحاق ، عن رجل ، عن معاذ . (تفسير ابن كثير ٥٠٩/١) .

(٢) مفهوم مطلع البقرة : الدعوة إلى الإيمان بالله في قوله : (الذين يؤمنون بالغيب) . وهو مصرح به في مطلع هذه بقوله (الله لا اله الا هو الحي القيوم) (٢) .

منها : بأشار إليه الإمام ، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه . وقال في آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) « ٣ » : وذلك بسط وإطناب ، لنفي الريب عنه .

ومنها : أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجلداً ، وقسمه هنا إلى آيات محكمات ، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله ^(١) .

ومنها : أنه قال في البقرة : (وما أنزل من قبلك) « ٣٥ » ، وقال هنا : (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) « ٣ ، ٤ » مفصلاً . وصرح بذكر الإنجيل هنا ، لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة ، لأنها خطاب لليهود .

ومنها : أن ذكر القتال وقع في سورة البقرة مجلداً بقوله : (وقاتلوا في سبيل الله) « ١٩٠ ، ٢٤٤ » [وقوله] : (كتب عليكم القتال) « ٢١٦ » . وفصلت هنا قصة أخذ بكاملها ^(٢) .

ومنها : أنه أوجز في البقرة ذكر للمقتولين في سبيل الله بقوله : (أحياء ولكن لا تشعرون) وزاد هنا : (عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضلة ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) « ١٧٠ » . الآيتين . وذلك إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال في البقرة : (والله يؤتئ ملكه من يشاء) « ٢٤٧ » . وقال هنا : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) « ٢٦ » . فزاد إطناباً وتفصيلاً .

(١) وفلك قوله : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) — (٧) الآية

(٢) وذلك في قوله : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) — (١٥٢) إلى ولئن كنتم أولي تبوء لآلئ الله تجتزون — (١٥٨) .

ومنها : أنه حذر من الربا في البقرة ، ولم يرد على لفظ الربا إيجازاً (١) .
وزاد هنا [قوله] . (أضعافاً مضاعفة) (١٣٠) . وذلك بيان وبسط .

ومنها : أنه قال في البقرة : (وأتموا الحج) (١٩٦) وذلك إيماء على الوجوب إجمالاً . وفصله هنا بقوله : (والله على الناس حج البيت) (٩٧) وزاد : بيان شرط الوجوب بقوله : (من استطاع إليه سبيلاً) (٩٧) . ثم زاد : تسخير من جحد وجوبه بقوله : (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) (٩٧) .

ومنها : أنه قال في البقرة في أهل الكتاب : (ثم توليتهم إلا قليلاً منكم) (٨٣) . فأجل القليل . وفصله هنا بقوله : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) (١١٣) . الآيتين .

ومنها : أنه قال في البقرة : (قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) (١٩٣) . فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً وكذلك قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) (١٤٣) . في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إيهام ، وأتى في هذه بصريح البيان فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (١١٠) . فقوله : (كنتم) . أصرح في قدم ذلك من (جعلناكم) . ثم زاد وجه الخيرية بقوله : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١١٠) . (٢)

(١) وثق في قوله : (الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) — (٢٧٥) ، (يحق الله الربا ويرى الصدقات) — (٢٧٦) .

(٢) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران : أن الصراط المستقيم ذكر مجلداً في الفاتحة ، ثم عينه في أول البقرة بقوله : (ذلك الكتاب) . ثم عين طريق السير عليه في آل عمران بقوله : (ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) — (١٠١) .

ثم فصل وسيلة الاعتصام بالله ، بالاعتصام بجبل الله ، فلما كان الصراط المستقيم دقيقاً جداً ، ويحتاج السائر عليه إلى غاية البقطة ، جث الله على الاعتصام بكتاب الله ، ونسأه حبلاً ليناسب الصراط الدقيق ، حيث يحس السائر عليه من الزلل . وحذر من الفرقة ، ودعا إلى التذكر الدائم من طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر بمثابة التعليم الدائم ، وتصحيح الأخطاء الناشئة من الهوى . وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاع) الجزء الأول ورقة : ١٧٧ ، ١ ، ب) .

ومنها : أنه قال في البقرة : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتتموا بها إلى الحكام) (١٨٨) . الآية . وبسط الوعيد هنا بقوله : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) (٧٧) . الآية ، وصدده بقوله : (وإن من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين مسئول) (٧٥) .

فهذه عدة مواضع وقعت في البقرة مجملة ، وفي آل عمران تفصيلها .
الوجه الثاني : أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحاداً ، وتلاحماً كذا ، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة ، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب : من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب قبله ، والمهدي إلى الصراط المستقيم . (١) وتكررت هنا آية : (قولوا آمنا بالله وما أنزل) (١٣٦) ، بكاملها ، ولذلك أيضاً ذكر في هذه ما هو تال لما ذكر في تلك ، أو لازم في تلك ، أو لازم له .

فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام (٢) . وذكر هناك مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده (٣) . وألطف من ذلك : أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب ، وهو عيسى عليه السلام (٤) ، ولذلك ضرب له المثل

(١) وذلك قوله في أول آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان - (٤٣)) .

(٢) وذلك قوله : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو - (٦)) .

(٣) خلق آدم في البقرة في قوله : (وإذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة - (٢٠)) وخلق أولاده في آل عمران في قوله : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء - (٦)) .

(٤) وذلك قوله : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون - (٥١)) .

بآدم ، واختصت البقرة بآدم ، لأنها أول السور ، وآدم أول في الوجود وصابق ،
ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتممة لها ، فمختصة بالإعراب [والبيان] .

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود ولد
بلا أب ، ففوتحو بقصة آدم ، لتثبت في أذهانهم ، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد
ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها .

ولأن قصة عيسى قيسست على قصة آدم في قوله : (كمثل آدم) (٥٩) ،
الآية ، والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلوما ، لتتم الحجة بالقياس ، فكانت
قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقدم .

ومن وجوه تلازم السورتين : أنه قال في البقرة في صفة النار : (أهدت
للكافرين) (٢٤) ، ولم يقل في الجنة : أعدت للمتقين ، مع افتتاحها بذكر
المتقين والكافرين معاً^(١) ، وقال ذلك في آخر آل عمران في قوله : (جنة
عرضها السموات والأرض أهدت للمتقين) (١٣٣) . فكان السورتين بمنزلة
سورة واحدة .

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها .
وأمر آخر استقرأته ، وهو : أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد ،
فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفتحة الأولى للدلالة على الاتحاد .
وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها . وآخر
آل عمران مناسب لأول البقرة ، فإنها افتتحت بذكر المتقين ، وأنهم المفلحون ،
وختمت آل عمران بقوله : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٢٠٠) .

(١) وذلك قوله في البقرة : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .
ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون - (٥ ، ٦) .

وافتحت البقرة بقوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) « ٤ » . وختم آل عمران بقوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) « ١٩٩ » . فله الحمد على ما ألهم .

وقد ورد أنه لما نزلت : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) « ٢٤٥ : ٢٤ » . قال اليهود : يا محمد ، افتقر ربك ، فسأل القرض عباده ، فنزل قوله : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) « ١٨١ : ٣ » ^(١) . فذلك أيضاً من تلازم السورتين .

ووقع في البقرة حكاية عن إبراهيم : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) « ١٢٩ » الآية . ونزل في هذه : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم) « ١٦٤ » . وذلك أيضاً من تلازم السورتين .

« سورة النساء »

تقدمت وجوه مناسبتها . ٧٦

وأقول : هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مجلات سورة البقرة .

فمنها : أنه أجل في البقرة قوله : (اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) « ٢١ » . وزاد هنا : (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) « ١٢ » .

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير : ٤٤٢/٧ . وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وانظر لما كانت آية التقوى في سورة البقرة غاية ، جعلها في أول هذه
السورة التالية لها مبدأ (١).

ومنها : أنه أجل في سورة البقرة : (أسكن أنت وزوجك الجنة) (٣٥) .
وبين هنا أن زوجته خلقت منه في قوله ، (وخلق منها زوجها) (١) .

ومنها : أنه أجل في البقرة آية اليتامى ، وآية الوصية ، والليراث ، والوارث ،
في قوله : (وعلى الوارث مثل ذلك) (٢٣٣) . وفصل ذلك في هذه السورة
أبلغ تفصيل (٢) .

وفصل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك ، فإنه قال في البقرة : (ولأمة مؤمنة
خير من مشركة) (٢٢١) ، فذكر نكاح الأمة إجمالا ، وفصل هنا شرطه (٣) .

ومنها : أنه ذكر الصداق في البقرة مجلا بقوله : (ولا يحل لكم أن
تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) (٢٢٩) . وشرحه هنا مفصلا (٤) .

ومنها : أنه ذكر هناك الخلع ، وذكر هنا أسبابه ودواعيه ، من النشوز
وما يترتب عليه ، وبعث الحكيم (٥) .

-
- (١) آية التقوى في البقرة هي : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين — (٢))
وهي غاية ، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون الا للمتقين ، فالنقوى غاية
الهداية . أما في سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها في قوله : (اتقوا ربكم
الذي خلقكم من نفس واحدة — (١) الآية . وبين وسائل تحقيقها في نفس الآية .
(٢) وذلك في الآيات (٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٣ ، ١٧٦) من سورة النساء .
(٣) وذلك في قوله : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت
أيانكم من فتياتكم المؤمنات — (٢٥) الآية .
(٤) وذلك في قوله تعالى : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم أحسنهن
متنظرا) الى (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) (٢٠ ، ٢١) .
(٥) قال عن الخلع في البقرة : (فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيها
انتدثا به — (٢٢٩) الآية . وهنا قال : (الرجال قوامون على النساء) الى
(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها (٣٤ / ٢٥) .
وهذا في أسباب الخلع .

ومنها : أنه فصل هنا من أحكام المجاهدين ، وتفضيلهم درجات ، والهجرة ، ما وقع هناك مجلأ ، أو مرموزاً^(١) .

وفيه من الاعتلاق بسورة الفاتحة : تفسير : (الذين أنعمت عليهم) .
بقوله : (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) (٦٩) .

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فن وجوه :

منها : أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة به^(٢) . وهذا من أكبر وجوه للناسبات في ترتيب السور ، وهو نوع من البديع يسمى : تشابه الأطراف .

ومنها أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة ، وذكر في هذه السورة ذيلها ، وهو قوله : (فما لكم في المنافقين فئتين) (٨٨) .
فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد ، كما في الحديث^(٣) .

ومنها : أن في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) (١٧٢)^(٤) . وأشار إليها

(١) قال هنا : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله) إلى (وكان الله غفورا رحيما) - (٩٥ - ٩٩) . وقال هناك : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتا بل أحياء) الآية . (كتب عليكم القتال وهو كره) الآية . (أن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) الآية (٢١٨) .

(٢) ختمت آل عمران بقوله : (وانتقوا الله لعلكم تفلحون) . وافتتحت النساء بقوله : (وانتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) الآية .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير : ٥٩/٦ عن زيد بن ثابت . ومسلم في المنافقين : ١٢٨/٨ . وأحمد في المسند : ١٨٤/٥ . وفيه : أن الصحابة اختلفوا فيمن رجع عن غزوة أحد ، فقال فريق : يقتلهم . وقال فريق : لا . فنزلت .

(٤) هو يوم حراء الأسد ، كان عقب أحد ، وكان الكفار قد ندبوا أن لم يدخلوا المدينة ، يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح ، ليريههم أن بهم قوة وجلدا . انظر البخاري : ١٣٠/٥ . المستدرک : ٢٦٨/٢ وسيرة ابن هشام : ١٠١/٢ .

هنا بقوله : (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون فإنهم يألمون كما تألمون) (١٠٤) الآية (١).

وبهذين الوجهين عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود ، لأن للمذكور هنا ذيل مافي آل عمران ، ولاحقه وتابعه ، فكانت بالتأخير أنسب .

ومنها : أنه ذكر في آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بآدم ، وفي ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقرير لعبوديته ، خلافا لما ادعته النصارى ، وذكر في هذه السورة الرد على الفريقين معاً : فرد على اليهود بقوله : (وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) (١٥٦) . وعلى النصارى بقوله : (لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) إلى قوله : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) (١٩١ - ٢٧١) .

ومنها : أنه لما ذكر في آل عمران : (إني متوفيك ورافعك إلى) (٥٥) . رد هنا على من زعم قتله بقوله : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه) (١٥٧ - ١٥٨) .

ومنها : أنه لما قال في آل عمران في المتشابه (٢) : (والراغبون في العلم

(١) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد في سورة محمد تفصيل سبب التهي عن الوهن في قوله : (ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأملون إن كنتم مؤمنين) (٣٥) .
هناك واقعة خاصة ، وهذا عام في قانون الحرب .

(٢) المتشابه في القرآن يأتي على معنيين : أولهما المتماثل في اللفظ ، وهو غير مراد هنا ، والثاني ما جاء مؤيداً للواجبات بأصله ، راداً بوصفه ، فتشابهه على السامع عليه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأبد الاتصى ورقة . (١٢٠) .

يقولون آمنا به كل من عند ربنا (٢٧) . قال هنا : (لكن الراسخون في العلم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك) (١٦٢) الآية .

ومنها أنه لما قال في آل عمران : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) (١٤) الآية . فصل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية ، ليعلم ما أحل الله من ذلك فيقتصر عليه ، وما حرم فلا يتعدى إليه ، لميل النفس إليه .

فقد جاء في هذه السورة أحكام النساء ، ومباحاتها^(١) ، للابتداء بها في الآية السابقة في آل عمران ، ولم يحتج إلى تفصيل البنين ، لأن تحريم البنين لازم ، لا يترك منه شيء كما يترك من النساء ، فليس فيهم مباح فيحتاج إلى بيانه ، ومع ذلك أشير إليهم في قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فلينتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) (٩) .

ثم فصل في سورة المائدة أحكام السراق ، وقطاع الطريق^(٢) ، لتعلقهم بالذهب والفضة الواقعين في الآية بعد النساء والبنين . ووقع في سورة النساء إشارة إلى ذلك في قسمة الموارث .

ثم فصل في سورة الأنعام أمر الحيوان والحرث ، وهو بقية المذكور في آية آل عمران . فانظر إلى هذه اللطيفة التي من الله بإلهامها .

ثم ظهر لي أن سورة النساء فصل فيها ذكر البنين أيضاً ، لأنه لما أخبر بحب الناس لهم ، وكان من ذلك إشارتهم على البنات في الميراث ، وتخصيصهم به دونهن ،

(١) وذلك من قوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء) إلى قوله : (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تبطلوا ميلاً عظيماً — (٢٢ — ٢٧) .

(٢) وذلك في قوله : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا (٢٣) الآية .

تولى قسمة الموارث بنفسه، فقال : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) (١١) . وقال : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب) (٧) . فرد على ما كانوا يصنعون من تخصيص البنين بالميراث ، لحبهم لهم ، فكان ذلك تفصيلا لما يحل ويحرم من إيثار البنين ، اللازم عن الحب ، وفي ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكر أخذه من الذهب والفضة ، وما يحرم . ومن الوجوه المناسبة لتقدم آل عمران على النساء : اشتراكهما مع البقرة في الافتتاح بإتزال الكتاب ، وفي الافتتاح : (الم) ومائت السور المفتحة بالحروف المقطعة كلها مقترنة ، كيونس وتوالياها ، ومريم وطه ، والطواسين ، و (الم) العنكبوت وتوالياها ، والحواميم ، وفي ذلك أول دليل على اعتبار المناسبة في الترتيب بأوائل السور .

ولم يفرق بين السورتين من ذلك بما ليس مبدوعا به سوى بين الأعراف ويونس اجتهدا لا توقيفا ، والفصل بالزمر بين (حم) غافرو (ص) وميائى . ومن الوجوه في ذلك أيضا : اشتراكهما في التسمية بالزهاوين في حديث : « اقرأوا الزهاوين : البقرة وآل عمران » . فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه بسورتي الفلق والناس ، المشتركين في التسمية بالمعوذتين .

« سورة المائدة »

وقد تقدم وجه في مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضا شارحة لبقية مجلات سورة البقرة ، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها في البقرة ^(١) . وكذا ما أخرجه الكفار تبعا

(١) قال تعالى هنا : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) الى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) - (٣ - ٥) . أما في البقرة فلم يكن هذا التفصيل ، إذ قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) . ثم قال : (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ممن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) - (١٧٢ - ١٧٣) .

لآبائهم في البقرة موجز^(١) وفي هذه السورة مطلب أبلغ إطناب في قوله :
(ما جل الله من بحيرة ولا سائبة) (١٠٣، ١٠٤) .

وفي البقرة ذكر القصاص في القتل^(٢) . وهنا ذكر أول من من القتل ،
والسبب الذي لأجله وقع ، وقال : (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه
من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن
أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا (٣٢) . وذلك أبسط من قوله [في البقرة] :
(ولكم في القصاص حياة) (١٧٩)

وفي البقرة : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) (٥٨) . وذكر في قصتها
هنا : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) (٥٤) .

وفي البقرة قصة الإيمان موجزة ، وزاد هنا بسطا بذكر الكفارة^(٣) .
وفي البقرة قال في الخمر والميسر : (فيها إثم كبير ومنافع للناس وإنها
أكبر من نفعها) (٢١٩) . وزاد في هذه السورة ذمها ، وصرح بتحريمها^(٤) .
وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : بيان المغضوب عليهم والضالين في

(١) في البقرة : (يا أيها الناس كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان
— (١٦٨) .

(٢) من دلائل الترتيب أنه قال : (كتب عليكم القصاص في القتل) في البقرة (١٧٨) .
ثم زاده بيانا في نفس السورة فقال : (ولكم في القصاص حياة (١٧٩) . ثم قال :
(والحرمات قصاص (١٩٤) . ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان في النساء فقال : (ومن
قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة (٩٢) . وزاد تفصيل القصاص فيها ساقه المؤلف
في الآية (٣٢) المائدة . ثم فصل أحكام القصاص في قوله : (وكتبنا عليهم فيها
أن النفس بالنفس والعين بالعين والآنف بالآنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح
تصاص . (٤٥) المائدة) .

وهذا تدرج بدیع يدل على أحكام الترتيب والتلاحم .

(٣) قال هنا : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان
فكفارته اطعام عشرة مساكين — (٨٩) .
وقال في البقرة : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت
نلوبكم والله غفور حلیم (٢٢٥) .

(٤) في هذه السورة قال تعالى : (انما الخمر والميسر والانتصاب والالزام رجس من
میل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء في الخمر والميسر ويصنكم عن ذكر الله . (٩٠ ، ٩١) الآية .

قوله : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وخضب عليه)
(٦٠) . الآية . وقوله : (قد ضلوا من قبل وأضلوا عن سواء السبيل) (٧٧) .

وأما اعتناقها بسورة النساء ، فقد ظهر لى فيه وجه بديع جدا . وذلك أن
سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحة وضمناء ، فالصريح : عقود الأنكحة ،
وعقد الصداق ، وعقد الحلف ، فى قوله : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم
نصيبهم) (٣٣) . وعقد الأيمان فى هذه الآية . وبعد ذلك عقد للمعاهدة والأمان
فى قوله : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) (٩٠) . وقوله :
(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية) (٩٢) .

والضمنى : عقد الوصية ، والوديعة ، والوكالة ، والعارية ، والإجارة ، وغير
ذلك من الداخل فى عموم قوله : (إن الله يأمرم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)
(٥٨) . فناسب أن يعقب بسورة مفتوحة بالأمر بالوفاء بالعقود . فكأنه قيل
[فى المائة] : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (١) ، التى فرغ من ذكرها
فى السورة التى تمت . فكان ذلك غاية فى التلاحم والتناسب والارتباط .

ووجه آخر فى تقديم سورة النساء ، وتأخير سورة المائة ، وهو : أن تلك
أولها : (يا أيها الناس) (١) ، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهو أشبه
بخطاب المكى ، وتقديم العام (١) وشبهه المكى أنسب .

ثم إن هاتين السورتين [النساء والمائدة] فى التقديم والاتحاد نظير البقرة
وآل عمران ، فتلكما فى تقرير الأصول ، من الوحدانية ، والكتاب ، والنبوة .
وهاتان فى تقرير الفروع الحكيمية .

(١) يريد بالعام : الخطاب بيا أيها الناس ، فهو اسم من : (يا أيها الذين آمنوا) .
أو (يا أهل الكتاب) .

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك ^(١) .

وافتتحت النساء بيده الخلق ، وختمت المائدة بالنتهى من البعث والجزاء ^(٢) . فكانت سورة واحدة ، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى .

ولما وقع فى سورة النساء : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) (١٠٥) الآيات . فكانت نازلة فى قصة مارق سرق درعا ^(٣) ، فصل فى سورة المائدة أحكام السراق والمائتين .

ولما ذكر فى سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس ، ذكر فى سورة المائدة آيات فى الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار ، وكرر قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) « ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ » . فانظر إلى هذه السور الأربع للمدنيات ، وحسن ترتيبها ، وتلاحمها ، وتناسقها ، وتلازمها .

وقد افتتحت بالبقرة التى هى أول ما نزل بالمدينة ، وختمت بالمائدة التى هى آخر ما نزل بها ، كما فى حديث الترمذى ^(٤) .

(١) ختام المائدة قوله تعالى : (لله ملك السموات والأرض وما بينهن وهو على كل شيء قدير (١٢٠) . وأول النساء : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة (١) الآية . وهو ظليل القشرة .

(٢) بدء الخلق فى أول النساء قوله : (الذى خلقكم من نفس واحدة (١) الآية . والمنتهى فى ختام المائدة قوله : (هذا يوم ينفع الصالحين صدقهم (١١٩) الآية .

(٣) قصة الدرع أخرجه ابن كثير فى التفسير : ٣٥٨/٢ ، ٣٥٩ ، وعزاها إلى ابن مردويه ، من طريق عطية العوفى . ورواه الترمذى فى حديث طويل فيه سبعة طعام وسلاح : ٣٩٥/٨ — ٣٩٩ تحفة الأحوذى . وأخرجه الحاكم فى المستدرک ٢٨٨/٤ — ٢٨٨ . وانظر ارشاد الرحمن فى المتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتجويد القرآن للاجهورى ورقة : ١٣٦ ، ب لزيادة التفصيل .

(٤) أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ٤٣٦/٨ ، ٤٣٧ : (آخر سورة نزلت المسائدة والفتح . وقال المياخورى : روى الشيخان عن البراء : آخر نزلت (يستفتونك قل الله يفتيك) . وآخر سورة نزلت براءة . ورد البيهقى هذا التعارض بأن كل واحد أجاب بها عنده . وقال الباتلانى : ليس فى هذه الأقوال شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكل واحد قال يضرب اجتهد (تحفة الأحوذى : ٤٣٦/٨ ، ٤٣٧) . وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباطلانى ص ١٢٥) .

قال بعضهم : مناسبة هذه السورة لآخر المائدة : أنها افتتحت بالحمد ، وتلك ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمان كما قال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (٣٩ : ٧٥) .

وقد ظهر لى بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه في آية (زين للناس) . أنه لما ذكر في آخر المائدة . (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) (١٢٠) على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله .

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جبل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : (وما فيهن) في آخر المائدة . وضمن قوله : (الحمد لله) [أول الأنعام] أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) [في آخر المائدة] :

ثم ذكر : أنه خلق النوع الإنساني ، وقضى له أجلا مسمى ، وجعل له أجلا آخر للبعث ، وأنه منشئ القرون قرنا بعد قرن ، ثم قال : (قل لمن مافى السموات والأرض) (١٢) . فأثبت له ملك جميع المنظورات . ثم قال : (وله ما سكن في الليل والنهار) (١٣) . فأثبت له ملك جميع المظروقات لظرفي الزمان . ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن ، من النيرين ، والنجوم ، وخلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حولة وفرش . وكل ذلك تفصيل للملك ما فيهن : وهذه مناسبة جليلة .

نم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والمالك، أكثر فيها من ذكر الرب الذى هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنسانى والملكوئى، والملكى والشيطانى، والحيوانى والنباتى، وما تضمنته من الوصايا، فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوى، ثم أشار إلى أشرط الساعة.

فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها، وما يتعلق بها، وما يرجع إليها، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المسكية بها^(١)، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها.

وهى فى جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة فى جمعها العلوم والمصالح الدينية. وما ذكر فيها من العبادات الخصة، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء، كنظير ما وقع فى البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على سبيل الاختصار والإشارة.

فإن قلت : فلم لا أفتح القرآن بهذه السورة، مقدّمة على سورة البقرة، لأن بدء الخلق مقدّم على الأحكام والتعبدات ؟ .

قلت : للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح للعاش والدنيا، وأن المقصود إنما هو العبادة، فقدم ما هو الأهم فى نظر الشرع^(٢)، ولأن علم بدء الخلق كالفضلة، وعلوم الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد.

(١) الانعام مكية وقد نقل السيوطى ذلك عن ابن الضريس فى فضائل القرآن من طريق محمد بن عبد الله الرازى الى ابن عباس (الاتقان ١/٤٢) .

(٢) ولهذا جاء فى البقرة : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) (٢١) وليس فى القرآن غيره بلفظه . قال الكرماني : العبادة فى الآية : التوحد . وهو أول ما يلزم العبد من المعارف . فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد فى القرآن ، ثم ذكر سائر المعارف ، وبنى عليها العبادات فيها بعدها من السور والآيات (أسرار التكرار فى القرآن) (٢٢) .

فلذلك لا ينبغي النظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه .

ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر ، أتقن مما تقدم . وهو . أنه لما ذكر في سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) (٨٢) إلى آخره ، فأخبر عن الكفار أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله ، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم وكان ذكر ذلك على مبدل الإيجاز ، ساق هذه السورة لبيان ما حرّمه الكفار في صنيعهم ، فاتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم ، إلى غير ذلك مما شملت عليه القصة ^(١) فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على مبدل الإجمال ، وتفصيلاً وبسطاً ، وإتماماً وإطناباً .

وافتنحت بذكر الخلق والملك ^(٢) ، لأن الخالق والمالك هو الذى له التصرف فى ملكه ، ومخلوقاته ، إباحة ومنعاً ، وتحريماً وتحليلاً ، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف فى ملكه .

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله : (رب العالمين) . وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم) « ٢١ » . وقوله : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) « ٢٩ » . وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله : (والأنعام والحَرْث) « ١٤ » . وقوله : (كل نفس ذائقة للموت) « ١٨٥ » . الآية .

(١) وهذا البيان الكامل فى قوله تعالى : (وجعلوا لله مما فرأوا من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله يزعمهم وهذا لشركائنا) الى (سيجزيهم وصنهم انه حكيم عليم (١٣٦ - ١٣٩) .

(٢) وذلك قوله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) الى (وهو الله فى السموات والأرض يطمس سرهم ويجهلهم ويعلم ما تكسبون (٢٠١) .

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق ، والتبحيح لما حرموه على أزواجهم ، وقتل البنات بالوأد .^(١)

وبالملائكة من حيث اشتغالها على الأطعمة بأنواعها .^(٢)

وفي افتتاح السور للكية بها وجهان آخران من للناسبة .

الأول : افتتاحها بالحمد .

والثاني : مشابقتها للبقرة ، للمفتح بها السور للمدنية ، من حيث أن كلاهما نزل مشيماً . ففي حديث أحمد : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً » .^(٣) وروى الطبراني وغيره من طرق : « أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك » . وفي رواية : « خمسمائة ملك » .^(٤)

ووجه آخر ، وهو : أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أوها الحمد . وهذه للربع الثاني ، والكهف للربع الثالث ، وسبأ وفاطر للربع الرابع .
وجميع هذه الوجوه التي استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنتقطة من بحر .

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ، ذكر فيها ما وقع عند بدء

(١) سبق ما يدل على بدء الخلق ، وما حرموه على أزواجهم ، أيا تبحيح قتل البنات بالوأد نجاه عقبه في قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بفسر علم وهرموا ما رزقهم الله (١٤٠) .

(٢) الأطعمة ذكرت هنا مفصلة من وله تعالى : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) إلى قوله : (إن تبصرون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١٤١ - ١٤٨) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند : ٢٦/٥ من معقل بن يسار . وأخرج أوله القرمذي : ١٨١/٨ بتخفة اليهودي . والدارمي في فضائل القرآن من ابن مسعود : ٤٤٧/٢ . ونزول الملائكة معها أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد : ٢١١/٦ وعزاه للطبراني .

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد من ابن عمر : ١٩/٧ ، ٢٠ وفيه (أنزلت جيلة واحدة) وفيه (لمهزجل بالتبحيح والتحصيد) . وعزاه للطبراني وقال : فيه يوسف الصنار ، وهو ضميم . وقال ابن الجوزي : متروك . (المثل المتناهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطي عن ابن الصلاح في فتاواه رواية تخالف ذلك : (لهما لم تنزل جيلة ، بل نزلت منها آيات بالمدنية ، قيل : ثلاث ، وقيل : غير ذلك) (الانتصان : ١٣٧/١) .

الخلق ، وهو قوله : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) « ٥٤ » . ففى الصحيح :
 « لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ، كتب كتابا عنده فوق العرش : إن
 رحمتى سبقت غضبى » (١)

« سورة الأعراف »

أقول : مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيها ألهمنى الله
 سبحانه : أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : (هو الذى
 خلقكم من طين) « ٢ » . وقال فى بيان القرون : (كم أهلكنا من قبلهم
 من قرن) « ٦ » . وأشار فيها إلى ذكر المرسلين ، وتعداد كثير منهم ،
 وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال ، لا التفصيل ، ذكرت هذه السورة
 عقبها ، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها .

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط ، بحيث لم تبسط فى سورة كما بسطت
 فيها . (٢) وذلك تفصيل إجمال قوله : (خلقكم من طين) « ٦ : ٢ » ثم فصلت
 قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية إهلاكهم ، تفصيلا تاما شافيا مستوعبا ،
 لم يقع نظيره فى سورة غيرها (٣) ، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلمهم ،
 فكانت هذه السورة شرحا لتلك الآيات الثلاث .

وأىضا ، فذلك تفصيل قوله : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض)
 « ٦ : ١٦٥ » . ولهذا صدر هذه السورة بخلق آدم الذى جعله الله فى الأرض

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ١٢٩/٤ . وفيه (كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش) .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)
 إلى : وقال فيها تهيمون وفيها تتوتون ومنها (تخرجون) (١١ - ٢٥)

(٣) وذلك من قوله : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) إلى (فاتبعهم القمم
 لهم يتفكرون) (٥٩ - ١٧٦) .

خليفة^(١) . وقال في قصة عاد : (جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) (٦٩) .
وفي قصة ثمود : (جعلكم خلفاء من بعد عاد) (٧٤) .

وأيضاً فقد قال في الأنعام : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (١٢) .
وهو موجز ، وبسطه هنا بقوله : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين
يتقون) (١٥٦) . إلى آخره . فبين من كتبها لهم .

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو : أنه قد تقدم
هناك : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه) (١٥٣) . وقوله : (وهذا
كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) (١٥٥) . فافتتح هذه السورة أيضاً
باتباع الكتاب في قوله : (كتاب أنزل إليك) إلى (اتبعوا ما أنزل إليكم
من ربكم) (٣ ، ٢) .

وأيضاً لما تقدم في الأنعام : (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) (١٥٩) .
(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (١٦٤) . قال
في مفتتح هذه السورة : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين .
فلنقصن عليهم بعلم) (٦ ، ٧) . وذلك شرح التنبئة المذكورة .

وأيضاً فلما قال في الأنعام : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (١٦)
الآية . وذلك لا يظهر إلا في الميزان ، افتتح هذه السورة بذكر الوزن ،
فقال : (والوزن يومئذ الحق) (٨) . ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو
من زادت حسنته على سيئاته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيئاته
على حسنته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم
وسيئاتهم .

(١) وذلك في الآية رقم (١١) إلى آخر الآية رقم (٢٥) .

« سورة الأنفال »

اعلم أن وضع هذه السورة وبراءة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ والصحابة ، كما هو الراجح في سائر السور ، بل اجتهد من عثمان رضى الله عنه .

وقد كان يظهر في بادىء الرأى : أن المناسب لإيلاء الأعراف بيونس وهود ، لا شراك كل في اشتغالها على قصص الأنبياء ، وأنها مكية النزول ، خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطوال ، وعدوا السابعة يونس ، وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل^(١) . ففى فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال وبراءة فصل للنظير عن سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال ، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة .

وقد امتشكل ابن عباس حبر الأمة قديماً ذلك . فأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال . قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثاني^(٢) . وإلى براءة وهى من المثين^(٣) ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ،

(١) السبع الطوال كما أخرج النسائى : ١١٤/١ عن ابن عباس : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . قال الراوى : وذكر السابعة فنسبتها . وأورد السيوطى نقلاً عن ابن أبى حاتم وغيره عن سعيد بن جبیر : أن السابعة يونس (الانتان : ٢٢٠/١) .

(٢) المثاني : إما أنها من الثناء . أو فيها الثناء والدعاء . أو لأنها تثنى بغيرها . (الانتان : ١٩٠/١) وقيل : لأنها ثانية للمثين ، تالية لها وقيل : لتثنية الأمثال فيها بالمعبر . حكاه السيوطى عن النكراوى (الانتان : ٢٢٠/١) .

(٣) المثين : بازادت آياتها على المائة أو قاربتها ، وهى ماوليت الطوال (الانتان : ٢٢٠/١) .

فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما مطر بسم الله الرحمن الرحيم ^(١) ، ووضعتها في السبع الطوال ^(٢) .

فانظر إلى ابن عباس رضي الله عنه ، كيف استشكل على عثمان رضي الله عنه أمرين : وضع الأنفال وبراءة في أثناء السبع الطوال ، مفصولا بهما بين السادسة والسابعة ، ووضع الأنفال وهي قصيرة مع السور الطويلة . وانظر كيف أجاب عثمان رضي الله عنه أولا بأنه لم يكن عنده في ذلك توقيف ، فإنه استند إلى اجتهد ، وأنه قرن بين الأنفال وبراءة لكونها شبيهة بقصتها في اشتغال كل منهما على القتال ، ونبذ اليهود ، وهذا وجه بين المناسب جلي ، فرضى الله عن الصحابة ، ما أدق أفهامهم ! وأجزل آراءهم ! وأعظم أحلامهم ! وأقول : يتم بيان مقصد عثمان رضي الله عنه في ذلك بأمر فتح الله بها :

الأول : أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها ، لكونها مشتملة على البسلة ، فقدمها لتكون لفظة منها ، وتكون براءة بخلوها منها كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، لا سورتان ^(٣)

(١) قال الباقلائي : إنما لم تكتب البسلة أول براءة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم من بعده أن كاتبى فواتح السور لم يكتبوها برايمهم ، وإنما اتبعوا ما من وشرع ، والا فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طرق الراى . وأيضا فإن براءة نزلت بالسيف وبعض اليهود ، وفي البسلة رافة ورحمة وإمان ، فتركت لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن ٧٧ ، ٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند : ٧/١ وأبو داود في الصلاة : ٢٠٨/١ والترمذى في التفسير : ٤٧٧/٨ - ٤٧٨ والحاكم في المستدرک : ٢٣٠/٢ . وانظر الدر المنثور : ٢٠٧/٢ وعزاه السيوطى لابن أبى شيبه والنسائى ولم أجد في النسائى .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن أبى روق ، وابن أبى حاتم عن سفيان ، وابن أشعث عن ابن الهيمه (الانتان : ٢٢٥/١)

الثاني : أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطول ، فإنه ليس في القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولا منها ، وذلك كاف في المناسبة .

الثالث : أنه خلل بالسورتين [الأنفال وبراءة] أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول ، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين محلهما ، فوضعا كاللوضع المستعار بين السبع الطوال ، بخلاف ما لو وضعنا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوم أن ذلك محلهما بتوقيف ، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوم^(١) .

فانظر إلى هذه الدقيقة التي فتح الله بها ، ولا يفوص عليها إلا غواص .
الرابع : أنه لو أخرهما وقدم يونس ، وآتى بعد براءة يهود ، كما في مصحف أبي بن كعب ، لمراعاة مناسبة السبع الطوال ، وإيلاء بعضها بعضا ، لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر آكد في المناسبة . فإن الأولى بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التي بعدها ، لما اشتركت فيه من الاشتغال على القصص ، ومن الافتتاح بالذكر ، وبذكر الكتاب ، ومن كونها مكيات ، ومن تناسب ما عدا الحجر في المقدار . وبالتسمية باسم نبي ، والرعد اسم^(٢) ملك ، وهو مناسب لأسماء الأنبياء .

فهذه ستة وجوه في مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها ، وهي آكد من ذلك الوجه السابق في تقديم يونس بعد الأعراف .

ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل ، مع كونها أقصر منها

(١) أي : وهم أن يكون وضعهما بين السبع الطوال بتوقيف . وقد جاء ترتيب السبع الطوال متواليات .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس : ١٤٥/٨ أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أخرنا عن الرعد . فقال : « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » . وذكر السيوطي في الانتقان : ٧٩/٤ : أن ابن أبي حنيفة أخرجه عن عكرمة ، وأن مجاهد سئل عن الرعد فقال : ملك . ألم تر الله يقول (ويسبح الرعد بحمده) .

ولوأخرت براءة عن هذه السور الست للمناسبة جدا بطولها لجاءت بعد عشر سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة في الطول .

ويشهد لمراعاة الفوائح في مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل لمناسبة ذوات (الر) قبلها ، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة ، مع الافتتاح بـ (الم) ، وتوالى الطوامين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم والقمر والسجدة ، لافتتاح كل بـ (الم) ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التي هي أطول منها .

هذا ما فتح الله به .

وأما ابن مسعود فقدم في مصحفه البقرة على النساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس ، فراهى الطوال ، وقدم الأطول فالأطول . ثم ثنى بالثنيين ، فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف . وهكذا الأطول فالأطول ، وذكر الأنفال بعد النور^(٢) .

ووجه مناسبتها لها : أن كلا منهما مدنية ، ومشملة على أحكام ، وأن في النور (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) « ٥٥ » الآية . وفي الأنفال (واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون) « ٢٦ » الآية . ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكر به في الثانية . فتأمل .

(١) انظر الاتقان : ٢٢٤/١ نقلا من ابن اثينة في المصاحف من رواية جرير بن عبد الصيد .

« سورة براءة »

أقول : قد عرف وجه مناسبتها ، ونزيد هنا أن صدرها ^(١) تفصيل لإجمال قوله في الأنفال : (وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء) « ٥٨ » . وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله هناك : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) « ٦٠ » الآية . ولذا قال هنا في قصة المنافقين : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) « ٤٦ » .

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر ، وهو : أنه سبحانه في الأنفال تولى قسمة الغنائم ، وجعل خُمسها خمسة أخماس ^(٢) ، وفي براءة تولى قسمة الصدقات ، وجعلها لثمانية أصناف ^(٣) .

« سورة يونس »

أقول : قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في الأنفال . ونزيد هنا : أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، وأنه سبحانه قال فيها : (أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا) « ٢ » فقدم الإنذار وعمه ، وأخير البشارة وخصمها . وقال تعالى في مطلع الأعراف : (لتنذر به وذكرى للمؤمنين) « ٢ » . فخص الذكرى وأخرها ، وقدم الإنذار ، وحذف مفعوله ليُعم .

وقال هنا : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام

-
- (١) صدر القصة : (ولما أنزل من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله) إلى (ماذا أنسلخ الأشهر الحرم فآقتلوا المشركين حيث وجدتهم) — (٣ - ٥) .
- (٢) وذلك قوله : (واعلموا أنها غنبت من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — (٤١) الآية .
- (٣) وذلك قوله : (أنها الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة طلبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عزيز حكيم — (٦٠) .

ثم استوى على العرش (« ٣ » . وقال في الأوائل ، أى أوائل الأعراف مثل ذلك^(١) .

وقال هنا : (يدبر الأمر) « ٣٥ » . وقال هناك : (مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) « ٥٤ » .

وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف ، فاختصر ذكر عذابهم ، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط^(٢) .
فهى شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه .

« سورة هود »

أقول : وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة :
أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جداً ، مجملة^(٣) ، فشرحت في هذه السورة وبسطت بما لم يبسطه في غيرها من السور ، ولا في سورة الأعراف على طولها ، ولا في سورة (إنا أرسلنا نوحاً) التى أفردت لقصته .

فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس . فإن قوله هناك :
(واتبع ما يوحى إليك) « ١٠٩ » هو عين قوله هنا : (كتاب أحكمت آياته)
ثم فصلت من لدن حكيم خبير (« ٢ ») . [فكان أول هود تفصيلاً لخاتمة يونس] .

(١) وذلك في قوله : (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يعيشى الليل النهار - (٥٤) .

(٢) في عذاب فرعون قال تعالى في الاعراف : (فانتقمنا منهم فاعرضاهم في اليم بانهم كذبوا بآياتنا وكتبوا عنها غافلين - (١٣٦) . وقال في يونس : (فانتقمهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرقى قال آمنت الى (فاليوم تنجيكَ ببذكَ لتكون لمن خلفك آية (٩٠ - ٩٢) .

(٣) وذلك من قوله : (واتل عليهم نبأ نوح) الى (فانظر كيف كان عاقبة المنفرين (٧١ - ٧٣) .

(٤) وذلك في قوله : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) الى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك - (٢٥ - ٤٨) .

أقول : وجه وضعها بعد سورة هود زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن قوله في مطلعها : (نحن نقص عليك أحسن القصص) (٣) مناسب لقوله في مقطع تلك : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (١٢٠) وأيضاً فلما وقع في سورة هود . (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) (٧١) . وقوله : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) (٧٣) . ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته ، فكان كالشرح لإجمال ذلك .

وكذلك قال هنا : (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبيك من قبل إبراهيم وإسحاق) (٦) . فكان ذلك كاللقترن بقوله في هود : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) (٤٨) .

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف ^(١) . وهذا وجه آخر من وجوه للنسبة في ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها في النزول هكذا .

« سورة الرعد »

أقول : وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعد ما فكرت فيه طائفة من الزمان : أنه سبحانه قال في آخر تلك : (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (١٠٥) . فذكر آيات السماء والأرضية مجملة ، ثم فصل في مطلع هذه السورة .

(١) الانتان : ١٧/١ نقلًا عن محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه .

فقله (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها)م استوى على العرش
وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم
بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن
كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يفتشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم
يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك
لآيات لقوم يعقلون (٢-٤) تفصيل الآيات الأرضية .

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق ، واقتراح
هذه بمثل ذلك ^(١) ، وهو من تشابه الأطراف .

« سورة إبراهيم »

أقول : وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفسكارى
فيه برهة : أن قوله فى مطلعها : (كتاب أنزلناه إليك) « ٢ » مناسب لقوله :
فى مقطع تلك : (ومن عنده علم الكتاب) « ٤٣ » . على أن المراد بـ (من)
هو : الله تعالى جل جلاله .

وأيضاً فى الرعد : (ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين
كفروا ثم أخذتهم) « ٣٢ » . وذلك مجمل فى أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ،
وصفة الاستهزاء ، والأخذ . وقد فصلت الأربعة فى قوله : (ألم يأتكم نبال الذين
من قبلكم قوم نوح وطاد وثمود) « ٩٦-٩٧ » الآيات ^(٢) .

(١) ختام يوسف : (ماكن حديثاً يفتري ولكن تصديق الذى بين يديه وتكمل
كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون - (١١١) . واقتراح هذه : (تلك آيات
الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون - (١) .
(٢) المواضع الأربعة المفصلة لما أجمل فى سورة الرعد هى : الرسل . فى قوله :
(ألم يأتكم نبال الذين من قبلهم قوم نوح وطاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم
إلا الله) الآية .

والمستهزئون ، وصفة الاستهزاء ، فى قوله : (فرموا أنفسهم فى أنعامهم وظلوا
أنا كفرنا بما أرسلتم به) (٩) . وقوله : (أن أنتم إلا بشر مفلحون أن تصفون
عما كان يعبد آباؤنا (١٠) . لنخرجكم من أرضنا أو لنعمدن فى ملتنا (١٢) . والأخذ :
فى قوله تعالى لنهلكن الظالمين . ولنسكنكم الأرض من بعدهم (١٢ ، ١٤) .
٩١/٢

أقول : تقدمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة . وإنما أخرت عنها
اقصرها بالنسبة إليها ، وهذا القسم من سور القرآن للثمين ، فناسب تقديم
الأطول ، مع مناسبة ماختمت به ابراعة الختام ، وهو قوله : (واعبد ربك
حتى يأتيك اليقين) (٩٩) . فإنه مفسر بالموت ^(١) ، وذلك مقطع في غاية البراعة .
وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة . ففي آخر آل عمران : (واتقوا الله
اعلمكم تغفلون) (٢٠٠) . وفي آخر الطواصين : (كل شيء هالك إلا وجهه أלה
الحكم وإليه ترجعون) (٢٨ : ٨٨) . وفي آخر ذوات (الر) : (وانتظر منهم
منتظرون) (٣٢ : ٣٠) . وفي آخر الحواميم (كأنهم يوم يرون ما يوعدون
لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) (٤٦ : ٣٥) .

ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى
لما قال هناك في وصف يوم القيامة : (وبرزوا لله الواحد القهار . وترى الجرمين
يومئذ مقرنين في الأصفاد . سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار)
« ٤٨ : ٥٠ » . قال هنا : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) « ٢ » فأخبر
أن الجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين
قد أخرجوا منها ، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين . وذلك وجه حسن في الربط ،
مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به ^(٢) ، وذلك من
تشابه الأطراف .

« سورة النحل »

أقول : وجه وضعها بعد سورة الحجر : أن آخرها شديد الالتئام بأول
هذه ، فإن قوله في آخر تلك : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) « ٩٩ » .

(١) أخرجه البخاري من سالم : ١٠٢/٦ . ونفس المعنى أخرجه البخاري في الجنائز :

وأحمد في المسند : ٤٣٦/٦ .

(٢) ختم إبراهيم وهذا ابلاغ للناس ولينفروا به وليعلموا أنها هو اله واحد وليذكر
أولو الألباب (٥٢) وافتتاح هذه : (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ، فكانت
متصلتان .

الذى هو مفسر بالموت ، ظاهر المناسبة لقوله هنا : (أتى أمر الله) (١) . وانظر كيف جاء فى المقدمة بآيتيك اليقين ، وفى المتأخرة بلفظ الماضى ، لأن المستقبل سابق على الماضى ، كما تقرر فى المعقول والعربية (٢) .

وظهر لى أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم ، وإنما تأخرت عنها مناسبة الحجر ، فى كونها من ذوات (الر) .

وذلك : أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت ، ومن هو ميت وغيره (٣) ، وذلك أيضا فى هذه بقوله : (الذين تتوفاهم الملائكة ظلمى أنفسهم) (٢٨) الآيات . فذكر الفتنة ، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال ، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب (٤) .

ووقع فى سورة إبراهيم : (وقد مكروا مكرم وهمد الله مكرم وإن كان مكرم لتزول منه الجبال) (٤٦) . وقيل : إنها فى الجبل الذى أراد أن يصعد السماء بالنسور (٥) . ووقع هنا أيضا فى قوله : (وقد مكر الذين من قبلهم) (٢٦) .

ووقع فى سورة إبراهيم ذكر النعم ، وقال عقبها : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٣٤) . ووقع هنا ذكر ذلك معقباً بمثل ذلك .

(١) مراد المؤلف أن المضارع سابق على الماضى فى الكلام والأخبار ، لاقى الزمان . فقولك الآن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة سابق فى الخبر ، ولا يجوز أن يقال : قام الناس لرب العالمين يوم القيامة الأبعد تمام ذلك البيت .

(٢) وذلك فى قوله : (يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتية الموت من كل مكان وما عسو بيت ومن ورائه عذاب غليظ (١٧٠) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى من العذاب : (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها (٢٩) وفى النعيم : (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار (٣٢) .

(٤) يروى أنه جوع نسرين ، وأوثق رجل كل منهما فى تابوت ، وقعد هو وآخر فى التابوت ورفع عصا عليها اللحم ، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا فى الجو . (تفسير الطبرى : ٣ / ١٦٠) .

« سورة بنى اسرائيل »

اعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل . أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « من العتاق الأول ، ومن من تلادى ^(١) » . وهذا وجه فى ترتيبها ، وهو اشتراكها فى قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكونها مشتملة على القصص .

وقد ظهر لى فى وجه اتصالها بسورة النحل : أنه سبحانه لما قال فى آخر النحل : (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) « ١٢٤ » . فسر فى هذه شريعة أهل السبت وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى اسرائيل » ^(٢) . وذكر عصياتهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استغزازهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجهم من المدينة ، ثم ذكر مؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن استغزازهم للنبي صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استغزاهم ، ووقع ذلك أيضا .

ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أسرى بالمصطفى إليه ، تشريفا له بحلول ركابه الشريف . فله الحمد على ما ألهم .

« سورة الكهف »

قال بعضهم : مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ،

(١) أخرجه البخارى فى التفسير : ١٨٩/٦ عن ابن مسعود .

(٢) تفسير ابن جرير : ٢٤٣/١٧ .

وهذه بالتحميد^(١)، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: (فسبح بحمد ربك) ١٥ : ٩٨ : ٢٠ : ١٣ و ٤٠ : ٥٥ و ٥٠ : ٣٩ و ٥٢ : ٤٨ . وسبحان الله وبحمده .

قلت : مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضا^(٢)، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف .

ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الاتصال . وذلك : أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذى القرنين^(٣) . وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل ، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين .

فإن قلت : هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة ؟

قلت : لما لم يقع الجواب عن الأول بالبيان^(٤) ، ناسب فصله في سورة .

ثم ظهر لي وجه آخر : وهو أنه لما قال فيها : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (٥٨) . والخطاب لليهود ، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بني إسرائيل مع

(١) وسبب آخر ذكره ابن الزمكاني هو : أن سورة الإسراء اشتملت على الإسراء الذي كذب به المشركون وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم من أجله ، وتكذيبه تكذيب لله ، فأتى بسبحان تنزيها لله عما نسب إلى نبيه من الكذب . وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي ، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد (الاتقان : ٣/٣٨٧) .

(٢) ختام الإسراء : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) (١١١) الآية .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥ .

(٤) لم يقع الجواب بالبيان ، وإنما وقع بإسناد علم الروح إلى الله : (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) — (٨٥) .

الخضر، التي كان سببها ذكر العلم والأعلم^(١)، وما دلت عليه من إحاطة
معلومات الله عز وجل التي لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل
لما ذكر من الحكم.

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قال
اليهود: قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل: (قل لو كان البحر
مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً)
(١٠٩) في هذه السورة^(٢). فهذا وجه آخر في المناسبة. وتكون السورة
من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك.

وأيضاً فلما قال هناك: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لنفيماً) (١٠٤)
شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: (فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) إلى (ونفخ
في الصور فجمعناهم جمعاً. وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) (٩٨: ١٠٠)
فهذه وجوه عديدة في الاتصال.

«سورة مريم»

أقول: ظهر لى في وجه مناسبتها لما قبلها: أن سورة الكهف اشتملت
على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف، وطول لبنهم هذه المدة الطويلة
بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر، وما فيها من الخارقات، وقصة
ذى القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان. قصة ولادة يحيى بن زكريا^(٣)،
وقصة ولادة عيسى، فنامب تناليهما.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٥٥/١ وفيه أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة،

ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً.

(٢) وفي رواية لابن جرير في التفسير: ١٠٤/١٥: فنزلت: (ولو أن ما في الأرض من
شجرة أقلام) الآية.

(٣) ولادة يحيى كانت عجيبة، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس، وأباه قد بلغ
من الكبر عتياً، فلا ينبغي مثلها أبداً.

وأيضا قد قيل : إن أصحاب الكهف يمشون قبل قيام الساعة ،
ويصحبون مع عيسى ابن مريم حين ينزل^(١) ، ففي ذكر سورة مريم بعد سورة
أصحاب الكهف مع ذلك — إن ثبت — مالا يخفى من المناسبة .
وقد قيل أيضا : إنهم من قوم عيسى ، وإن قصتهم كانت في الفترة ،
فناسب توالى قصتهم وقصة نبيهم^(٢) .

« سورة طه »

أقول : روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن طه
نزلت بعد سورة مريم ، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف . وذلك وحده
كاف في مناسبة الوضع ، مع التأخر بالافتتاح بالحروف للمقطعة .
وظهر لي وجه آخر ، وهو : أنه لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من
الأنبياء ، وهم : زكريا ، ويحيى ، وعيسى ، الثلاثة مبسطة . وإبراهيم ، وهي
بين البسط والإيجاز . وموسى ، وهي موجزة بجملة^(٣) أشار إلى بقية النبيين في
الآية الأخيرة إجمالا^(٤) . وذكر في هذه السورة شرح قصة موسى ، التي أجملها
هناك ، فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط^(٥) ، ثم أشار إلى
تفصيل قصة آدم ، الذي وقع مجرد اسمه هناك^(٦) . ثم أورد في سورة الأنبياء
بقية قصص من لم يذكر في مريم ، كنوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب
وذى الكفل ، وذى النون ، وأشار إلى قصة من ذكرت قصته إشارة

-
- (١) لم نعرف على هذا الرأي نبيا بين أيدينا من مصادر .
(٢) قال ابن كثير : الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية ، لأن اليهود أشباروا على
تريش بسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم ، فدل على أنه محفوظ قبل
عيسى . (تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥) .
(٣) وردت قصة موسى في ثلاث آيات قصار من مريم (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .
(٤) وذلك في قوله تعالى : (أولئك الذين أنعم الله من النبيين من ذرية آدم ومن
حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا (٥٨) الآية .
(٥) وذلك في قوله : (وهل أتاك حديث موسى) إلى (ثم لنفسه في اليم نسفا —
٩ — ١٧) .
(٦) وقع مجرد ذكر اسم آدم في مريم في قوله : (من ذرية آدم (٥٨) . وفكرت قصته
مفصلة في طه من قوله : (وإذا قلنا لللائكة اسجدوا لآدم) إلى (قلنا اهبطوا منها
جميعا بعضهم لبعض عدو (١١٦ — ١٢٣) .

وجيزة ، كوسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وزكريا ، ومريم ، لتسكون السورتان كالمقابلتين .

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة ^(١) . كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ، ومع أبيه مبسوطا ^(٢) . فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب ، وبديع هذا الترتيب .

« سورة الأنبياء »

قدمت ما فيها مستوفى . وظهر لى فى اتصالها بآخر طه : أنه سبحانه لما قال : (قل كل متربص فتربصوا) (١٣٥) . وقال قبله : (ولولا كلمة مسبقت من ربك لكان لزاما وأجلا مسمى) (١٣٩) . قال فى مطلع هذه : (اقترب للناس حسابهم) (١) إشارة إلى قرب الأجل ، ودنو الأمل المنتظر .

وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم) (١٣١) الآية . فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه الحياة الدنيا ، لدنوها من الزوال والفناء ، ولهذا ورد فى الحديث : أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة : هلا سألت النبى صلى الله عليه وسلم عنها ؟ فقال : « نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا » ^(٣) .

« سورة الحج »

أقول : وجه اتصالها بسورة الأنبياء : أنه ختمها بوصف الساعة فى قوله : (واقرب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) (٩٧) . وافتتح

(١) قصة إبراهيم فى الانبياء وردت فى قوله : (ولقد آتينا إبراهيم رشده) (٥١) الآية الى : (وكانوا لنا عابدين) (٧٢) . وكلها فى إبراهيم وقومه . أما عن إبراهيم وأبيه فأشير إليها فى قوله (إذ قال لأبيه وقومه (٥٢) الآية .
(٢) وردت قصة إبراهيم وأبيه فى مريم من قوله تعالى : (إذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت لم تعبد إلا يسمعون ولا يبصرون (٤٢) الى (سأستغفر لك ربي انه كان من جنيا (٤٧) . وجاءت الإشارة إليه مع قومه فى قوله تعالى : (واعتزلكم وماتدعون من دون الله (٤٨) الآية .

(٣) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر .

هذه بذلك ، فقال : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) — (١٢، ٢٠) .

« سورة المؤمنون »

أقول : وجه اتصالها بسورة الحج : أنه لما ختمها بقوله : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) (٧٧) . وكان ذلك مجالا ، فصلّه في فاتحة هذه السورة ، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح ، فقال : (قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون) (١-٦) . الآيات .

ولما ذكر أول الحج قوله : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نبعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) (٥) الآية . زاده هنا بياناً في قوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) (١٢، ١٣) الآيات . فكل جملة أوجزت هناك في القصد أطلب فيها هنا .

« سورة النور »

أقول : وجه اتصالها بسورة قد أفلح : أنه لما قال : (والذين هم لغفروهم حافظون) (٥) . ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فوجه ، من الزانية والزاني ، وما اتصل بذلك من شأن القذف ، وقصة الإفك ، والأمر بغض البصر^(١) ، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستغفار ،

(١) الزانية والزاني في قوله : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) .

الى (وحرم ذلك على المؤمنين) (٢ ، ٢٠) .

وجاء القذف في قوله : (والذين يرمون المحصنات) الى (وان الله تواب رحيم

(٦ - ١٠) . وهو شامل لاحكام اللعان .

وقصة الانك هي التي ارجف بها المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله

عنها حتى برأها الله تعالى : (ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الى (والله

عزيز حكيم) (١٢ - ١٨) .

وجاء غرض البصر في قوله : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) الى (وتوبوا

الى الله جيبما أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٣٠ - ٢١) .

وحفظ فرجه ، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا^(١) .

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط ، ولا تناسق أبعد من هذا النسق .

« سورة الفرقان »

ظهر لى بفضل الله بعدما فكرت فى هذه : أن نسبة هذه السورة لسورة النور ، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة .

من حيث أن النور قد ختمت بقوله : (لله مافى السموات والأرض) . (٦٤) كما ختمت المائدة بقوله . (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) (١٢٠) .

وكانت جملة النور أخصر من المائدة ، ثم فصلت هذه الجملة فى سورة الفرقان فافتتحت بقوله . (الذى له ملك السموات) إلى قوله . (وخلق كل شىء فتدبره تقديراً) (٢) . كما افتتحت الأنعام بمثل ذلك^(٢) . وكان قوله عقبه . (واتخذوا من دونه آلهة) (٣) إلى آخره ، نظير قوله هناك . (ثم الذين كفروا يربهم يعدلون) (١) .

ثم ذكر فى خلال هذه السورة جملة من المخلوقات ، كمد الظل ، والليل ، والنوم ، والنهار ، والرياح ، والماء ، والأنعام ، والأناسى ، ومرج البحرين ، والإنسان ، والنسب ، والصهر ، وخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، والاستواء على العرش ، وبروج السماء ، والسراج ، والقمر ، إلى غير ذلك ، مما هو تفصيل لجملة : (لله مافى السموات والأرض)^(٣) . كما فصل آخر المائدة فى الأنعام بمثل ذلك^(٤) . وكان البسط فى الأنعام أكثر لطولها .

(١) جاء الأمر بالنكاح ، والاستعفاف لغير القادر ، وعدم إكراه الفتيات على البغاء فى الآيات (٢٢ - ٢٣) .

(٢) افتتاح الأنعام قوله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور (١) الآية .

(٣) جميع هذه المعانى جاءت فى قوله تعالى : (ألم تر الى ربك كيف مد الظل) الى قوله : (تبارك الذى جعله فى السماء بزوجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا (٤٦ - ٦١) .

(٤) هذا التفصيل جاء فى الأنعام مفرقا فى الآيات : (١٣ ، ١٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) .

ثم أشار في هذه السورة إلى القرون المكنية وإهلاكهم ، كما أشار في الأنعام إلى ذلك^(١) . ثم أفصح عن هذه الإشارة في السورة التي تليها وهي الشعراء بالبسط التام ، والتفصيل البالغ^(٢) . كما أوضح تلك الإشارة التي في الأنعام ، وفصلها في سورة الأعراف التي تليها^(٣) .

فكانت هاتان السورتان [الفرقان والشعراء] في المثنى ، نظير تينك السورتين [الأنعام والأعراف] في الطوال ، واتصالهما بآخر النور ، نظير اتصال تلك بآخر المائة ، المشتملة على فصل القضاء^(٤) .

ثم ظهر لي لطيفة أخرى ، وهي . أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية ، افتتح أولها بالثناء على الله ، كالأنعام بعد المائة ، والإسراء بعد النحل ، وهذه بعد النور ، ومبدأ بعد الأحزاب ، والحديد بعد الواقعة ، وتبارك بعد التحريم^(٥) ، لما في ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال ، وإلى الانتقال من نوع إلى نوع .

« سورة الشعراء »

أقول . وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص مجملة بقوله . (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً . فقلنا

(١) تفصيل أحوال القرون المكنية وإهلاكهم في الفرقان في قوله : (نقلنا اذهبوا إلى

القوم الذين كذبوا) إلى (وكلا نبرنا تنبيرا) (٣٦ — ٣٩) . وفي الأنعام في قوله : (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١) .

(٢) جاء ذلك في الآيات (٦٤ — ١٨٩) حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم آياه ، ووسيلة اهلاكهم .

(٣) تفصيل أحوال القرون المكنية جاء في الأعراف في قوله : (لقد أرسلنا نوحا) إلى (فأولئك هم الخاسرون (٥٩ — ١٧٨) .

(٤) آخر المساندة (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير (١٢٠) وهو يشتمل على فضل القضاء ضمنا . وأول الانتماء . (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) (١) الآية .

(٥) قول المؤلف : والإسراء بعد النحل ، لا يتفق مع قاعدته ، فكلاهما مكي ، وقوله : والحديد بعد الواقعة ، عكس قاعدته ، فالواقعة مكية ، والحديد مدنية ، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن ، كيونس بعد التوبة ، وإبراهيم بعد الزمد ، والنحل بعد الشعراء ، وق بعد الرحمن ، والفناء على القرآن ثناء على الله ضمنا .

وهناك مكيات بعد مدنيات لم تنفخ بالثناء على الله ، كالواقعة بعد الرحمن .

اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً . وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً (٣٥٥-٣٨٨) . شرح هذه القصص ، وفصلها أبلغ تفصيل في الشعراء التي تليها ، ولذلك رتبنا على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة . فبدى بقصة موسى ^(١) ، ولو رتبنا على الواقع لأخرت كما في الأعراف .

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذي من الله بالهامه .
ولما كان في الآيات المذكورة قوله . (وقروناً بين ذلك كثيراً) . زاد في الشعراء تفصيلاً لذلك قصة قوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب .
ولما ختم الفرقان بقوله : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (٦٣) . وقوله : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (٧٢) . ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك ، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك ، وبين ما يمدح من الشعر ، وينخل في قوله . (سلاماً) . وما يذم منه ، وينخل في اللغو ^(٢) .

« سورة النمل »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنها كالتتمة لها ، في ذكر بقية القرون ، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان ، وداود ، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء ^(٣) .

-
- (١) بدى بقصة موسى ، من قوله : (واذا نادى ربك موسى) (١٠) وما بعدها . ثم نوح في قوله : (كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥) وما بعدها . ثم عاد من قوله : (كذبت عاد المرسلين (١٢٢) وهكذا على ترتيب آيات الفرقان .
(٢) وذلك من قوله : (والشعراء يتبعهم الغاؤون) (٢٢٤) إلى آخر السورة (٢٢٧) .
(٣) قصة داود وسليمان في قوله : (ولقد آتينا داود وسليمان علماً) إلى (وأسلبنا مع سليمان لله رب العالمين) (١٥ - ٤٤) . وقصة لوط في قوله : (ولوطاً إذ قال لقومه اتبعون الفاحشة) إلى (نساء صبياح المنذرين) (٥٤ - ٥٨) .
وقول المؤلف : ان قصة لوط هنا أبسط منها في الشعراء مخالف للواقع ، فهي في الشعراء أطول ، ولكنها ذكرت في النمل مع بيان أقصى ما وصلوا إليه من الانحلال الخلقي والانتكاس المعنوي ، إذ عدوا طهارة لوط من الخوذ الجنسي جريمة يستحق عليها النفي من البلاد . ولم يرد هذا التعليل في الشعراء . فلعل البسط في المعاني لا في المقدار .

وقد روينا عن ابن عباس ، وجابر بن زيد ، في ترتيب السور : أن الشعراء أنزلت ، ثم طه ، ثم القصص . ولذلك كان ترتيبها في المصحف هكذا .

وأيضاً فقد وقع فيها : (وإذ قال موسى لأهله امكثوا إني آنست ناراً) (٧) ، إلى آخره . وذلك تفصيل قوله في الشعراء : (فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين) (٢١) .

« سورة القصص »

أقول : ظهر لي بعد الفكرة : أنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى . (ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت) (١٨ ، ١٩) . إلى قول موسى . (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين) (٢١) . وقال في طس النمل قول موسى لأهله : (إني آنست ناراً) (٧) إلى آخره ، الذي هو في الوقوع بعد الفرار ، ولما كان على ميل الإشارة والإجمال ، بسط في هذه السورة ما أوجزه في السورتين ، وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما .

فبدأ بشرح تربية فرعون له ، مصداقاً بسبب ذلك : من علورعون ، وذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح ، وبسط القصة في تربيته ، وما وقع فيها إلى كبره ، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي ، وهي الفعلة التي فعل ، إلى أهم بذلك عليه ، وللموجب لفراره إلى مدين^(١) ، إلى ما وقع له مع شعيب ، وتزوجه بابنته ، إلى أن صار

(١) مدين : مدينة قوم شعيب ، وهي تجاه تبوك ، على بحر القلزم ، وبها البئر التي استقى منها موسى لقمم شعيب (مرآة الاطلاع ١٢٤٦/٣) .

بأهله ، وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله : (امكثوا لى آنست ناراً) ،
إلى ما وقع له فيها من المناجاة الربيه ، وبعثه إياه رسولا ، وما امتنع ذلك ، إلى
آخر القصة .

فكانت السورة شارحة لما أجمل فى السورتين معاً ، على الترتيب .
وبذلك عرف وجه الحكمة فى تقديم (طس) على هذه ، وتأخيرها عن
الشعراء ، فله الحمد على ما ألهم .

« سورة العنكبوت »

أقول . ظهر لى فى وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر فى أول
السورة السابقة عن فرعون أنه : (علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف
طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم) (٤٤) . افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين
الذين فتنهم الكفار وعذبهم على الإيمان ، بمذاب دون ما عذب به قوم فرعون
بنى إسرائيل ، تسلياً لهم ، بما وقع لمن قبلهم ، وحثاً لهم على الصبر ، ولذلك قال
هنا : (ولقد فتننا الذين من قبلهم) (٣) . وهذه أيضاً من حكم تأخير القصص
على (طس) .

وأيضاً . فلما كان فى خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ (١) ،
وفى خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله : (يا عبادى إن أرضى واسعة)
(٥٦) ناسب تناليهما .

(١) وذلك فى قوله تعالى : (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) (٨٥) الآية .
والمعنى : لرادك الى مكة ، كما فى البخارى : ١٤٢/٦ . أى : كما
خرجت منها . وبه قال ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير والضحاك ،
واختاره ابن جرير (تفسر الطبرى : ٨٠/٢٠) .

« سورة الروم »

أقول ظهر لي في اتصالها بما قبلها . أنها ختمت بقوله . (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) «٦٩» . فافتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة^(١) .

هنا مع تأخيرها بما قبلها في المطلع ، فإن كلا منهما افتتح بـ (الم) غير معقب بذكر القرآن ، وهو خلاف القاعدة الخاصة بالمفتتح بالحروف المقطعة ، فإنها كلها عقببت بذكر الكتاب أو وصفه ، إلا هاتين السورتين وسورة القلم ، لنكتة ينتها في «أسرار التنزيل»^(٢) .

(١) وذلك في قوله تعالى : (غلبت الروم في أدنى الأرض) الى قوله : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله (٢ - ٥) .

(٢) ذكر المؤلف في المقدمة : أنه ألف هذا الكتاب الموسوعي ، ولم نشر عليه في قوائم المخطوطات ، وأشار اليه في الإقتان : ٢٨١/١ ، ٣٦٩/٣ .

والذي نراه في سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه والله أعلم : أنه لما تكرر الحديث عن الكتاب عقبب الحروف المقطعة وأنه من عند الله ، وهدى للمبتقين ، وتنزيل من رب العالمين ، كان لابد من ابتلاء المصدقين به حتى ينمزل المنافقون عن المؤمنين ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب وهذا بمثابة الاختبار انعملي لاستجابة الناس لأمر الكتاب ، ولا سيما وأن حملة تنسيق آثارها الكفار ضد الإيمان . ولذا قال تعالى في العنكبوت : (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن أنا كنا معكم) الى أن قال : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم — ١٠ — ١٢) الآية .

أما في الروم فقد عقببت الحروف المقطعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب الذي صدق الكتاب بالاختبار عن المستقبل وما يجري فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة . وهذا ابتلاء يميز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد وموقف الفريقين منه . ودليل على صدق الكتاب وأنه من الله حينما تحقق النصر بالفعل .

(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ٦) .

أما سورة القلم فكانت ثالثة السور نزولا بمكة ، وكان الكفار قد أرجسوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مجنون ، أو به مس من الجن ، فافتضى الأمر تسليته وتثبيت فؤاده ، وقدم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذي جاء عقب ذلك في الآيات (ولا تطع كل حلاف مهين) الى : (أساطير الأولين ١٠ - ١٥) .

« سورة لقمان »

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة فى الافتتاح بـ (الم) .
أن قوله تعالى هنا : (هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون
الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) (٣ ، ٤) متعلق بقوله فى آخر سورة الروم :
(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) (٥٦)
الآية . فهذا عين إيقانهم بالآخرة ، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر .

وأيضاً فى كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق ^(١) .

وذكر فى الروم : (فى روضة يجبرون) (١٥) . وقد فسر بالسباع ^(٢) . وفى
لقمان : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) . (٦) . وقد فسر بالفناء ،
وآلات الملاهى ^(٣) .

« سورة السجدة »

أقول . وجه اتصالها بما قبلها . أنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التى
ذكرت فى خاتمة لقمان .

فقوله هنا : (ثم يرجع إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) (٥) .

(١) ذكرت جملة الأديان فى سورة الروم فى قوله تعالى : (أو لم يسيرا فى الأرض
لينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الى قوله : (ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون - (٩ ، ١٠) وقوله : (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا -
(٢٢) . وبدء الخلق فى قوله : (ومن آياته أن خلقكم من تراب (٢٠) الآية ،
وما يصعدنا .

وذكرت جملة الأديان فى لقمان فى قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث
(٦) الآية . وقوله : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير
(٢٠) وما يصعدنا . وبدء الخلق فى قوله : (خلق السموات بغير عمد ترونها
(١٠) الآية . وقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنس واحدة (٨) الآية .

هو قول يحيى بن أبى كثير . انظر (تفسير ابن كثير ٢١٢/٦) .

(٢) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكرى (تفسير الطبرى ٢١/٢٩) .

وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ،
والحسن . وانظر (صحيح الترمذى : ٥٠٢/٤ ، ٥٠٢ بتحفة الاحوذى) .

شرح لقوله هناك : (إن الله عنده علم الساعة) (٣٤) . ولذلك عقب هنا بقوله :
(عالم الغيب والشهادة) (٦) .

وقوله : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) (٢٧) . شرح لقوله :
(وينزل الغيث) (٣٢) .

وقوله : (الذي أحسن كل شيء خلقه) (٧) الآيات . شرح لقوله : (ويعلم
ما في الأرحام) (٣٤) .

وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) . و (ولو شئنا لآتينا
كل نفس هداها) (١٣) . شرح لقوله : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) (٣٤)
وقوله : (أنذا ضللنا في الأرض) إلى قوله : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي
وكل بكم ثم إلى ربكم مرجعكم) (١١) شرح لقوله : (وما تدرى نفس بأى أرض
تموت) (٣٤) . فله الحمد على ما ألهم .

« سورة الأحزاب »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه ، ومقطع تلك ، فإن
تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم (١) ،
[ومطلع هذه الأمر بتقوى الله ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فصارت
كالتمة لما ختمت به تلك ، حتى كأنهما سورة واحدة] .

« سورة سبا »

أقول : ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها ، وهو أن تلك لما ختمت بقوله :
(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على
المؤمنين والمؤمنات) (٢٧) . افتتحت هذه بأن له ما في السموات وما في الأرض (٢)

(١) وذلك قوله تعالى : (فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون) (٣٠) .
(٢) وذلك قوله : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد
في الآخرة (١) الآية .

وهذا الوصف لا يتفق بذلك الحكم ، فإن للملك العام ، والقدره التامة ، يقتضيان ذلك .

وخاتمة سورة الأحزاب : (وكان الله غفوراً رحيماً) (٧٣) . وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ : (وهو الرحيم الغفور) (٢) .

« سورة فاطر »

أقول : مناسبة وضعها بعد سبأ . تأخيهما في الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما في المقدار .

وقال بعضهم : افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختم ما قبلها ، من قوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل) (٥٤) . كما قال : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (٦ . ٤٥) . فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المحتتم به المائة^(١) .

« سورة يس »

أقول . ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله : (وجاءكم النذير) (٣٧) . وقوله : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير) (٤٢) . والمراد به محمد ﷺ^(٢) وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم . وهذا وجه بين .

وفي فاطر : (وسخر الشمس والقمر) (١٣ ، ١٤) الآيتين . وفي يس . (والشمس تجري لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) (٣٨ ، ٣٩) . وذلك أبسط وأوضح .

(١) آخر المائة (هذا يوم ينفع الصالحين صدقهم) (١١٩) الآية . وأول الانعام : (الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) (١) الآية .

(٢) هو قول السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . انظر تفسير ابن كثير ٥٤٢/٦

وفي فاطر : (وترى الفلك فيه مواخر) (١٢) . وفي يس . (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) — (٤١ — ٤٣) . فزاد القصة بسطا .

« سورة الصافات »

أقول . هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان ، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم ^(١) ، كما أن يتنك السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم .

« سورة ص »

أقول : هذه السورة بعد الصافات ، كطس بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وك يوسف بعد هود ، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء ، ممن لم يذكر في الصافات . نوحا ، وإبراهيم ، والذبيح ، وموسى ، وهارون ولوطا ، وإلياس ، ويونس ، وذكر هنا . داود ، ومسلمان ، وأيوب ، وأشار إلى بقية من ذكر ، فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء وطس ، بعد مريم والشعراء .

« سورة الزمر »

لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال في (ص) . (إن هو إلا ذكر للعالمين) (٨٧) ثم قال هنا (تنزيل الكتاب من الله) (١) . فكانه قيل : هذا الذكر تنزيل . وهذا تلاؤم شديد ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لا لتأمت الآيتان كآلية الواحدة .

وقد ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم ^(٢) ، وذكر في صدر هذه

(١) وردت الإشارة إلى القرون المكثبة واهلاكهم في يس بقوله تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون) (١) . وجاء ذلك منفصلا في الصافات في قوله : (بل عجبنا وبمسخرون (١٢) إلى آخر السورة .
(٢) خلق آدم في ص قوله : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) إلى (لاملن جهنم منك ومن قومك منهم أجمعين) (٧١ — ٨٥) .

قصة خلق زوجه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم والموت ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة ^(١) . وقال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (٧٥) .

فذكر أحوال الخلق ، من المبدأ إلى المعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها .

« سورة غافر »

أقول : وجه إيلاء الحواميم السبع ^(٢) سورة الزمر : تأخى المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب . وفي مصحف أبي بن كعب : أول الزمر (حم) ^(٣) ، وذلك مناسبة جليلة .

ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح بـ (حم) ، وبذكر الكتاب بعد حم ، وأنها مكية ، بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة ^(٤) . وفيها شبه من ترتيب ذوات (الر) الست ^(٥) .

-
- (١) بدأ ذكر هذه الموضوعات في الزمر في قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها (٦) الآية . وقوله : (انك ميت وانهم ميتون (٣٠)) وقوله : (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها (٤٢) الآية . وقوله : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا (٧١) الآيات ، الى آخر السورة . ولذلك لو قمت الزمر على ص ، لاختل النسق القرآني الذي أحكمه الله تعالى .
- (٢) الحواميم السبع هي : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والاحقاف .
- (٣) الانتقان : ٢٢٢/١ نقلا عن أبي أشقة في المصاحف وفي الاصل : أن الزمر أولها حم في مصحف ابن مسعود وأثبنا ما في الانتقان . والبرهان للزركشي : ١٢٠/١ .
- (٤) لم نعتز على هذه الرواية ولم يذكرها السيوطي في الانتقان ولا الزركشي في البرهان ، ولا مصادر المئة الستة ، ولا مجمع الزوائد .
- (٥) ذوات (الر) الست هي يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، (وأولها : المز) . وإبراهيم ، والحجر .

فانظر ثانية الحواميم وهي فصلت ، كيف شابهت ثانية ذوات (الر) هود في
تغيير الأسلوب في وصف الكتاب . وأن في هود : (كتاب أحكمت آياته
ثم فصلت) (٢) . وفي فصلت : (كتاب فصلت آياته) (٣) . وفي سائر ذوات
(الر) (تلك آيات الكتاب) (٤) . وفي سائر الحواميم : (تنزيل الكتاب)
أو (والكتاب) (٥) .

ورويانا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور : أن الحواميم
نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف : المؤمن ، ثم
السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم المذخر ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف .
ولم يتخللها نزول غيرها (٦) . وتلك مناسبة جليلة وانحمة في وضعها هكذا .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهي : أنه في كل ربع من أرباع القرآن توالى
سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة . فهذه السبع مصدرة بـ (حم) . وسبع في الربع
الذى قبله ذوات (الر) الست متوالية ، و (المص) الأهراف ، فإنها متصلة
بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه . وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك ،
وأول النصف الثانى بسورتين (٧) .

وقال الكرماني في «المجائب» (٨) : ترتيب الحواميم السبع لما بينها من
التشاكل الذى خصت به ، وهو : أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب

- (١) ولكن في إبراهيم (كتاب انزلناه اليك) .
(٢) ولكن في فصلت : (تنزيل من الرحمن الرحيم) . وفي الشورى (كذلك يوحى
اليك . وإلى الذين من قبلك الله) (١) .
(٣) الانتان : ٩٧/١ نقلًا عن أبى بكر محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور .
(٤) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات في سورة الشعراء
(الانتان : ٢٤٣/١) . وعليه يكون نصف القرآن مفتتحا بالشعراء ، وأولها
(طسم ، والنيل ، طس) والقصص (طسم) والمنكوت (الم) والروم
(الم) ولقيان (الم) والسجدة (الم) .
وإذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما (مريم ، وطه) .
(٥) هو كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » لتاج القراء محمود بن حمزة
بن نصر الكرماني (خط) . ولم نعثر عليه مخطوطا ولا مطبوعا ، انظر (معجم
الأدباء ١٩/١٢٥) . وقد ذكره الكرماني في (أسرار التكرار في القرآن ص ١٨) .

أو وصفه ، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر ، وتشاكل الكلام في النظام . انتهى .

قلت : وانظر إلى مناسبة ترتيبها ، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر ، ومطلع فصلت التي هي ثمانية الحواميم مناسب لمطلع هود ، التي هي ثمانية ذوات (الر) ومطلع الرخرف مؤاخ لمطلع الدخان ، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف^(١)

« سورة القتال »

لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله في آخر الأحقاف : (فبل يهلك إلا القوم الفاسقون) « ٣٥ » . وانصالة وتلاصقه ، بحيث أنه لو أسقطت البسلة منه ، لكان متصلا اتصالا واحدا لا تنافر فيه ، كآلية الواحدة ، آخذاً بعضه بمنق بمض^(٢)

« سورة الفتح »

لا يخفى وجه حسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر ، مرتب على القتال ، وقد ورد في الحديث : أنها مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إيهامه في قوله تعالى في الأحقاف : (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم)^(٣) « ٩ » . فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجهة .

(١) مطلع الزمر (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . ومطلع غافر (تنزيل الكتاب من الله العزيز العظيم) . ومطلع هود (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) . ومطلع فصلت (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) . وهكذا جميع المطالع التي فكسرها المؤلف .

(٢) أول القتال : (الذين كفروا وصعدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) (١) . وسورة الفتح مع هذا بتمية لموضوع سورة الاحقاف قبلها : فلاحقاف فيها الحديث من اعراض الكافرين في مختلف الممسور ، وفيها دعوتهم الى الايمان بالله هي احسن ، وقد استنفدت السورة وسائل الانتاع العقلي ، واثبتت عنو اصل الفكر وجوهرهم ، فكانت سورة القتال بها فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تماما مع نسخ وسائل الدعوة المبلية بأية السيف .

(٣) هو قول ابن عباس . رواء منه على بن طلحة . ولذا قال عكرمة والحسن وقادة : ان آية الاحقاف منسوخة بأية الفتح : (ليفخر لك الله ما تقدم من ذنبك) الآية . قالوا : ولما نزلت قال رجل من المسلمين : فما هو عامل بنا ؟ فنزل : (ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات) الآية . انظر تفسير ابن كثير : ٢٦٠/٧ .

« سورة الحجرات »

لا يخفى تأخى هاتين السورتين [الفتح والحجرات] مع ما قبلهما ، لكونهما مدينتين ، ومشملتين على أحكام . فلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة^(١) . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا^(٢) . وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ ، خصوصا مطلعها ، وهذه أيضا في مطلعها أنواع من التشريف له ﷺ^(٣) .

« سورة الذاريات »

أقول : لما ختمت (ق) بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء ، والجنة والنار ، وغير ذلك من أحوال القيامة ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ماتوعدون من ذلك لصاقي ، وإن الدين — وهو الجزاء — لواقع . ونظير ذلك : افتتاح الرسائل بذلك ، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء في سورة الإنسان^(٤) .

« سورة الطور »

أقول : وجه وضعها بعد الذاريات : تشابهها في المطلع والمقطع ، فإن في

-
- (١) قتال الكفار في الفتح معروف ، لانها في فتح مكة ، وقاتل البغاة في الحجرات جاء في قوله تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله (٩) الآية .
- (٢) ختام الفتح : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما (٢٩) وافتتاح الحجرات : (يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله (١) الآية .
- (٣) تشريفه صلى الله عليه وسلم في الفتح في قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك (٢) الآية . وتشريفه في مطلع الحجرات : (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله (١) . (ان الذين يغفون أصواتهم عند رسول الله (٣) الآية . (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (٤) .
- (٤) الوعد والوعيد في الإنسان ا انا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا (٤) وما بعدها واتسم على صحة ذلك في أول الرسائل (ان ما توعدون لواقع (٧) .

مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله : (إن المتقين في جنات) (١٥ ، ١٧) .
الآيات . وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار ، بقوله في تلك : (فويل للذين
كفروا) (٦٠) . وفي هذه : (فالذين كفروا) (٤٢) ،^(١) .

« سورة النجم »

أقول : وجه وضعها بعد الطور : أنها شديدة المناسبة لها ، فإن الطور ختمت
بقوله : (وإدبار النجوم) (٢٩) . واقتضت هذه بقوله : (والنجم إذا
هوى) (١) .

ووجه آخر : أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين ، وأنهم تبع لآبائهم^(٢) ،
وهذه فيها ذكر ذرية اليهود^(٣) في قوله : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) (٣٢) .
ولما قال هناك في المؤمنين : (ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من
شيء) (٢١) . أى : ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين ، مع نفعهم بما عمل آباؤهم .
قال هنا في صفة الكفار أو بنى الكفار : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (٣٩) .
خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار .

وهذا وجه بين بديع في المناسبة ، من وادى التضاد .

« سورة القمر »

أقول : لا يخفى ما في توالى هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية ،
لما بين النجم والقمر من الملازمة ، ونظيره توالى الشمس والليل والضحي ،
وقبلها سورة الفجر .

(١) ومن المناسبة بين الطور والذاريات أنه تعالى فكر تكذيب الكافرين ورد عليهم
في إيجاز في الذاريات بقوله : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول
إلا قالوا سحر أو مجنون (٥٢) وما بعدها . ثم فصل ذلك في الطور من
قوله : (نذكر هنا أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٢٩) إلى آخر السورة (٤٩) .
(٢) وذلك في قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم (٢١)
(٣) بل فيها ذكر للذرية كل كافر حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم
فريقين : فريقا للجنة ، وفريقا للسعير . انظر (تفسير ابن كثير : ٤٢٧/٧) .

ووجه آخر ، وهو : أن هذه السورة بمد النجم كالأعراف بمد الأنعام ،
وكالصفات بمد يس ، في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في
قوله هناك : (وأنه أهلك عاداً الأولى . ونمود فما أبق . وقوم نوح من قبل إنهم
كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤفكة أهوى) (٥٠ - ٥٣)^(١) .

« سورة الرحمن »

أقول : لما قال سبحانه وتعالى في آخر القمر : (بل الساعة موعدهم والساعة
أدهى وأمر) (٤٦) . ثم وصف حال المجرمين في سقر ، وحال المتقين في جنات
ونهر ، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل ، على الترتيب الوارد
في الإجمال .

فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إدهائها ، ثم وصف النلو
وأهلها^(٢) ، والجنة وأهلها^(٣) ، ولذا قال فيهم : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)
(٤٦) . وذلك هو عين التقوى^(٤) . ولم يقل : لمن آمن وأطاع ، أو فهو ،
لتنوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل .

وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها فله .
الحمد على ما ألهم وفهم .

« سورة الواقعة »

أقول : هذه السورة متأخية مع سورة الرحمن في أن كلا منهما في وصف

-
- (١) جاء تفصيل ذلك على الترتيب ، وزاد عليه ، في سورة القمر ، من قوله :
(كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبداً) (فاحفظناهم أخذ عزيز مقتدر (٩ - ٤٢)) .
(٢) وصف النار وأهلها جاء في قوله في سورة الرحمن سنفرغ لكم أيها الثقلان (إلى (يطوفون بينها وبين حميم آن - (٣١ - ٤٤) .
(٣) ووصف الجنة وأهلها جاء في قوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) إلى آخر السورة .
(٤) التقوى هي : خوف مقام الرب . وبذلك يتفق التفصيل هنا مع الإجمال في قوله : (أن المتقين في جنات ونهر) في سورة القمر .

القيامة ، والجنة والنار . وانظر إلى اتصال قوله هنا : (إذا وقعت الواقعة) (١) ، بقوله هناك : (فإذا آتشت السماء) (٣٧) . ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفي الواقعة على ذكر رج الأرض^(١) . فكان السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة .

ولهذا عكس في الترتيب . فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك ، وفي آخر هذه ما في أول تلك ، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة .

فافتتح الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان ، والجنان من مارج من نار ، ثم صفة القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة .

وابتداً هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم النجوم ، ولم يذكرها في الرحمن ، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر القرآن .

فكانت هذه السورة كالقابلة لتلك ، وكردّ العجز على الصدر .

« سورة الحديد »

قال بعضهم : وجه اتصالها بالواقعة : أنها قدمت بذكر التسبيح ، وتلك ختمت بالأمر به .

قلت : وتماه : أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به ، وكأنه قما (فسبح باسم ربك العظيم) لأنه (سبح لله ما في السموات والأرض)

(١) وذلك في قوله : (إذا رجيت الأرض رجاً) (٤) .

« سورة المجادلة »

أقول : لما كان في مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة ، ومنها : الظاهر والباطن ، وقال : (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم) (٤) . افتتح هذه بذكر أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه ﷺ . ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها حين نزلت : « سبحان الذي سمع الأصوات ، إني لفي ناحية البيت لأعرف ما تقول » (١)

وذكر بعد ذلك قوله : (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) (٧) . وهو تفصيل لقوله : (وهو معكم أينما كنتم) (٤) .

وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشر ، مع تأخيها في الافتتاح بـ (سبح) .

« سورة الحشر »

آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر^(٢) . وأول الحشر نازل في غزوة بني النضير^(٣) ، وهي عقبها ، وذلك نوع من المناسبة والربط .

وفي آخر تلك : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (٢١) . وفي أول هذه :

-
- (١) أخرجه البخاري في التوحيد : ١٤٤/٩ وابن ماجة في المقدمة : ٦٧/١ والاسم أحمد في المسند : ٤٦/٦ . وابن جرير في التفسير : ٥/٢٨ ، ٦ .
 (٢) وهو قوله تعالى : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) (٢٢) .
 وقيل هم : أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وأبو بكر هم بقتل لده عبد الرحمن ، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيدا ، وعمر قتل قريبا له ، وحيزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد : ٣٠٠/١/٣) .
 (٣) وذلك قوله : (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) (٢) .

وأخرج البخاري في التفسير : ١٨٣/٦ ومسلم في التفسير : ٢٤٥/٨ من ابن عباس أو أول الحشر أنزلت في بني النضير .

(فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) (٢٢) .
 وَفِي آخِرِ ذَلِكَ ذَكَرَ مِنْ حَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(١) ، وَفِي أَوَّلِ هَذِهِ ذَكَرَ مِنْ
 شَاقِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(٢) .

« سُورَةُ الْمُتَحَنِّنَةِ »

أَقُولُ : لَمَّا كَانَتْ سُورَةُ الْحَشْرِ فِي الْمَعَاهِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، عَقِبَتْ
 بِهِمْ ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ذِكْرِ الْمَعَاهِدِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ ^(٣)
 وَلَمَّا ذَكَرَ فِي الْحَشْرِ مَوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَعْضَاهُمْ ، نَمَّ مَوَالَاةَ الَّذِينَ مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ ، افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ بِنَهْيِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ ،
 لثَلَا يَشَابَهُوا الْمُنَافِقِينَ فِي ذَلِكَ . وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ وَبَسَطَهُ ، إِلَى أَنْ خَتَمَ بِهِ ، فَكَانَتْ
 فِي غَايَةِ الْإِتِّصَالِ ، وَلِذَلِكَ فَصَلَ بَيْنَ الْحَشْرِ وَالصَّفِّ ، مَعَ تَأْخِيهِمَا فِي الْإِفْتِتَاحِ
 بِـ (سَبِّحْ) .

« سُورَةُ الصَّفِّ »

أَقُولُ : فِي سُورَةِ الْمُتَحَنِّنَةِ ذَكَرَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَبَسَطَهُ فِي هَذِهِ
 السُّورَةِ أَبْلَغَ بَسْطٍ .

« سُورَةُ الْجُمُعَةِ »

أَقُولُ : ظَهَرَ لِي فِي وَجْهِ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا : أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ فِي سُورَةِ

(١) : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ (٢٢) الْآيَةُ .
 (٢) : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٤) الْآيَةُ .
 (٣) : نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، لَمَّا أَخْبَرَ الْمُشْرِكِينَ بِعَزْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ عَلَى نَقْضِ مَيْكَةِ بَعْدَ أَنْ نَقَضَ الْمُشْرِكُونَ صَلَاحَ الْحَدِيثِيَّةِ . (الْبُخَارِيُّ
 فِي التَّفْسِيرِ : ١٨٥/٦ ، ١٨٦ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي التَّفْسِيرِ : ١٩٨/٩ - ٢٠٢ بِتَحْفَةِ
 الْأَوْفِيِّ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد : ٧١/١ ، ٨٠) .

الصف حال موسى مع قومه ، وأذاهم له ، ناهيا عليهم ذلك^(١) ، ذكر في هذه السورة حال الرسول ﷺ ، وفضل أمته ، تشریفاً لهم ، ليظهر فضل ما بين الأمتين ، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود .

وأيضاً لما ذكر هناك قول عيسى : (ومبشراً يرسل يأتى من بعدى اسمه أحمد) «٦» . قال هنا : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) «٢» . إشارة إلى أنه الذى بشر به عيسى . وهذا وجه حسن فى الربط .

وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماء تجارة ، ختم هذه بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية .

وأيضاً : فتلك سورة الصف ، والصفوف تشرع فى موضعين : القتال ، والصلاة ، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة ، وهى الجمعة ، لأن الجماعة شرط فيها ، دون سائر الصلوات .
فهذه وجوه أربعة فتح الله بها .

« سورة المنافقون »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم ، وهم المنافقون . ولهذا أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقين يفزع بها المنافقين^(٢) .

(١) وذلك فى قوله : (واذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى (هـ) الآية . وقال فى الصف عن بنى اسرائيل : انهم كذبوا عيسى ، وكذبوا على الله ، وأرادوا أن يطفئوا نور الله ، فى الآيات (٦ - ٩) . ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغياب ، وأبطل حججهم فى أنهم شعب الله المختار (٥ - ٧) .

(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٩١/٢ عن أبى هريرة . وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط . وقال : أسنده حسن . وفيه : (يرفع) . بالفتح والراء المبهمة . وأخرج مثله مختصراً عن أبى عبيدة الخولانى وعزاه للطبرانى فى الكبير .

وتعام المناسبة أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين ، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى^(١) . والتي قبلها وهي المتنحة فيها ذكر المعاهدين من المشركين^(٢) . والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب^(٣) ، فإنها نزلت في بني النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا .

وبذلك انضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا ، لاشتغالها على أصناف الأمم ، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها^(٤) لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره . وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره .

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير ، فله الحمد على ما فهم وألم .

هذا وقد ورد عن ابن عباس في ترتيب النزول : أن سورة التغابن نزلت عقب الجمعة^(٥) ، وتقدم نزول سورة « المنافقون » فما فصل بينهما إلا الحكمة والله أعلم .

« سورة التغابن »

أقول : لما وقع في آخر سورة المنافقون : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت) ١٠٠ . الآية . عقب بسورة التغابن ، لأنه قيل في معناه : يا أيها الإنسان يأتي يوم القيامة وقد جمع مالا ، ولم يعمل فيه خيراً ، فأخذه وارثه

(١) وذلك في قوله : (ألم ياتكم نبياً الذين كذبوا من قبل) الى (وذلك على الله

يسر - (٥ - ٧) .

(٢) وذلك في الآيات (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

(٣) وذلك في الآيتين (٨ ، ٩) .

(٤) يعني الفصل بين الحشر ، وأولها : سبح . وبين التغابن وأولها : يسبح ،

بالمتنحة والصف والجمعة والمنافقون .

(٥) الاثنان : ١٧/١ . وهو عن جابر بن زيد أيضا . وجابر أحد علماء التابعين بالقرآن .

بسهولة ، من غير مشقة في جمعه ، فأنتقه في وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعب في جمعه ، والوارث منعم مثاب ، مع سهولة وصوله إليه . وذلك هو التغابن ^(١) .

فارتباطه بآخر السورة المذكورة في غاية الوضوح . ولهذا قال هنا :
(وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (١٦) .
وأيضاً في آخر تلك : (لاتلهم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) (٩) .
وفي هذه : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) (١٥) . وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها ^(٢) .

وقال بعضهم : لما كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وميتين سورة ، أشير فيها إلى وفاة النبي ﷺ بقوله : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) (١١) .
فانه مات على رأس ثلاث وميتين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقهه ﷺ ^(٣) .

« سورة الطلاق »

أقول : لما وقع في سورة التغابن : (إن من أزواجكم وأولادكم هدواً لكم) (١٤) . وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق ، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسبيهم .

« سورة التحريم »

أقول : هذه السورة متاخية مع التي قبلها بالافتتاح بخطاب النبي ﷺ ،

(١) تفسير الكواشي : ٤ / ورقة ١١٢ . خطأ الأزهري .
(٢) يعني الأموال أولاً ، والأولاد ثانياً ، وفي كلتا السورتين .
(٣) أورد السيوطي هذا القول في الانتقائ : ٣٠ / ٤ غير معزوكما هو ههنا ، كدليل على أنه ما من شيء الا ويمكن استخراجه من القرآن .

وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإيلاء . وبينهما من المناسبة ملائحة .

ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ ، إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران^(١)

« سورة تبارك »

أقول : ظهر لي بعد الجهد : أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتى نوح ولوط الكافرتين ، وامرأة فرعون المؤمنة ، أفتتحت هذه السورة بقوله : (الذى خلق الموت والحياة) (٢) . مراداً بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال^(٣) ، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته ، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط ، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين ، وآمنت امرأة فرعون ، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد ، لما سبق في كل من القضاء والقدر .

ووجه آخر ، وهو أن « تبارك » متضل بقوله في آخر الطلاق : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) (١٢) . فزاد ذلك بسطاً في هذه الآية : (الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) إلى قوله : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) (٣ - ٥) ، وإنما فصلت بسورة التحريم لأنها كاللتمة لسورة الطلاق .

« سورة ن »

أقول : لما ذكر سبحانه في آخر تبارك التهديد بتفوير الماء^(٤) ، استظهر

(١) وهما في قوله تعالى : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون (١١) ، ١٢) . - (١٠١) .

(٢) السلمى . حقائق التفسير ورقة ٢٠١ . خط .

(٣) ورد في قوله تعالى : (قل أرايتم ان أصبحواكم غورامن ياتىكم بهاء معين (٣٠) . وتفسير المساء : جفائه .

عليه في هذه السورة بإذهاب تمر أصحاب البستان في ليلة يطلق عليه فيها ، وم نائمون ، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ^(١) . وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة ، فإلما الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال : (وم نائمون . فأصبحت كالصريم) ١٩ ، ٢٠ . وقال هناك : (إن أصبح مأوكم غوراً) ٣٠ . إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة .

« سورة الحاقة »

أقول : لما وقع في « ن » ذكر يوم القيامة مجمل في قوله : (يوم يكشف عن ساق) ٤٢ . الآية . شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم ، وشأنه العظيم ^(٢) .

« سورة سأل »

أقول : هذه السورة كالتنمية لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار ^(٣) .

وقال ابن عباس : إنها نزلت عقب سورة الحاقة ^(٤) ، وذلك أيضاً من وجوه المناسبة في الوضع .

« سورة نسوح »

أقول : أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال في (سأل) : (إنا لقادحون . على أن نبذل خيراً منهم) ٤١ . عقبه

(١) جاء هذا في سورة الطم بقوله تعالى : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) إلى (إنا كتب طافين ١٧ - ٢١) .
(٢) وذلك من أول السورة إلى قوله : (لا ياكله إلا الخائثون) ٣٧ .
(٣) وذلك من أول السورة إلى قوله : (وجمع نفوس) ١٨ .
(٤) الاتقان : ١/٩٧ .

بقصة قوم نوح ، المشتعلة على إبادتهم عن آخرهم ، بحيث لم يبق منهم ديار
وبدل خيراً منهم ، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك .

هذا مع تأخى مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرين^(١) .

« سورة الجن »

أقول : قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها ، فلم يظهر لي سوى أنه
قال في سورة نوح : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرمل السماء عليكم مدمراً)
« ١٠ ، ١١ » . وقال في هذه السورة : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم
ماء غدقاً) « ١٦ » . وهذا وجه بين في الارتباط^(٢) .

« سورة المزمل »

أقول : لا ينبغي وجه اتصال أولها : (قم الليل) « ٢ » . بقوله في آخر تلك :
(وأنه لما قام عبد الله يدعوه) « ١٩ » . وبقوله (وأن المساجد لله) « ١٨ »^(٣) .

« سورة المدثر »

أقول هذه متأخية مع السورة التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ ،
وصدر كليهما نازل في قصة واحدة .

- (١) العذاب في مطلع سأل من أول السورة : سأل سائل بظباب واقع للكافرين ليس له
دافع (١ ، ٢) . وفي سورة نوح : أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم غذاب اليم (١) .
(٢) ومن المناسبة بين السورتين : أنه تعالى فكر في نوح : (رب انهم عصوني وأتبعوا
من لم يزد به ماله وولده الا خساراً . (٢٢) . ومضى في بيان كفرهم وضلالهم ،
الى أن دعا عليهم نوح . ثم بين في أول الجن : انهم كالانس في الايمان والكفر ،
وان لكبار الجن اتصالاً بكفار الانس ، فقال تعالى : (وأنه كان رجال من الانس
يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) (٦) . (وأنا منا الصالحون ومنا القاسطون (١٤) الآية .
فلك كما طرائق قديداً (١١) . (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون (١٤) الآية .
فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والانس ، وبيان المقارنة بينهما .
(٣) ومن المناسبة أنه تعالى لما قال في نهاية الجن : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه
أحدًا . الا من ارتضى من رسول (٢٦ ، ٢٧) . افتتح المزمل بفكر بداية ارسال
النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كلفه من شعائر العبودية والعبادة والدعوة .
وفلك لان النبي صلى الله عليه وسلم بعث بين يدي الساعة كما جاء في السنة ،
وقد قال تعالى في الجن : (وان ادري اقريب أم بعيد ما توعدون (٢٥) . فكانه
قال : هذه المزمل علم من اعلامها ، فهو الذي ليظفره الله ليظهره على غيبه ،
وأنه بين يدي الساعة .

وقد ذكر عن ابن عباس في ترتيب نزول النور : أن المذثر نزلت عقب
المزمل . أخرجه ابن الضريس . وأخرجه غيره عن جابر بن زيد^(١) . .

« سورة القيامة »

أقول : لما قل سبحانه في آخر المذثر . (كلا بل لا يخافون الآخرة »٥٣)
بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر في هذه
السورة الدليل على البعث ، ووصف يوم القيامة ، وأحواله ، وأحواله ، ثم ذكر
ما قبل ذلك من مبدأ الخلق . فذكرت الأحوال في هذه السورة على عكس
ما هي في الواقع .

« سورة الانسان »

أقول : وجه اتصالها بسورة القيامة في غاية الوضوح . فإنه تعالى ذكر في
آخر تلك مبدأ خلق الإنسان من نقطة ، ثم ذكر مثل ذلك في مطلع هذه
السورة ، « منتحاً بخلق آدم أبي البشر .

ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قل هنا . (نجعل منه الزوجين الذكر والأنثى)
« ٣٩ » . ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قل هنا . (نجعلناه سمياً بصيراً) « ٤٠ » ،
فعلق به غير ما علق بالأول ، ثم نصب عليه نهاية السبيل ، وتقسيمه إلى شاكراً
وكفور ، ثم أخذ في جزاء كل .

وجه آخر ، هو أنه لما وصف حل يوم القيامة في تلك السورة ، ولم
يصف فيها حل النار والجنة ، بل ذكرها على سبيل الإجمال ، فصلها في هذه

(١) ونسبها كذلك زيادة إمام الساعية وأحوالها في قوله : (ماذا نرى في القرآن) إلى
(فما تفهمهم شعاعة الشياطين ٨ - ٤٨) .

السورة ، وأطنب في وصف الجنة^(١) ، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك (وجوه يومئذ ناضرة) — (٢٢) . وقوله هنا . (إنا أعدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) (٤٤) . شرح لقوله هناك . (تظن أن يفعل بها فاقره) (٢٥) .
وقد ذكر هناك . (كلا بل يحبون العاجلة . ويندرون الآخرة) (٢٠ ، ٢١) ، وذكر هنا في هذه السورة . (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوما ثقيلا) (٢٧) . وهذا من وجوه المناسبة^(٢) ..

« سورة المرسلات »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها . أنه تعالى لما أخبر في خاتمها . أنه . (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما) (٣١) ، افتتح هذه بالقسم على أن ما يوعدون واقع ، فكان ذلك تحقيقا لما وعد به هناك المؤمنين ، وأوعد الظالمين .

ثم ذكر وقته وأشرطه بقوله : (فإذا النجوم طمست) (٨) إلى آخره .
ويحتمل أن تكون الإشارة بما يوعدون إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للكافرين ، ووعد الأبرار^(٣) .

(١) تفصيل أحوال المؤمنين في الجنة مفصل هنا من قوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) إلى : (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) (٥ - ٢٢) .

(٢) ومن وجوه المناسبة بين سورة الإنسان وسورة القيامة : أنه تعالى فصل في القيامة أحوال الكافرين عند الموت وما يعمانون من قهر وندم في قوله : (كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق) إلى : (ثم أولى لك فأولى) — (٢٦ - ٣٥) وفي هذه السورة فصل أحوال المؤمنين في حياتهم ، والتي استوجبوا بها النعيم الموصوف في السورة . وذلك من قوله : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) إلى (فواقعهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) (١٧ - ٢١) .
(٣) وهناك مناسبة بين القيامة والإنسان والمرسلات من ناحية خلق الإنسان . ففي القيامة قال : (ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة مخلوق فسوى . فجعل

منه الزوجين الذكر والأنثى) (٣٧ - ٣٩) فذكر بداية الخلق . وفي الإنسان تدرج إلى الحديث عن اتمام بناء الإنسان حتى صار شديد الأمر (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم (٢٨) الآية) ولما كانت قوة الإنسان مظنة كبريائه ، ذكره في المرسلات بهانة أصله : (ألم نخلقكم من ماء مهين) (٢٠) .
ومعاني السور الثلاث تدور حول الأصول . ولذلك قال في المرسلات : (فان كان لكم كيد فكيدون) (٣٦) . اعلاما بقره للعباد .

« سورة عم »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تناسبها معها في الجمل . ففي تلك : (ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين) (١٧ ، ١٨) . (ألم نخلقكم من ماء مهين) (٢٠) . (ألم نجعل الأرض كفافاً) (٢٥) . إلى آخره . وفي عم : (ألم نجعل الأرض مهاداً) (٦) إلى آخره . فذلك نظير تناسب جمل : ألم نشرح ، والضحي ، بقوله في الضحي : (ألم يجعلك يتيماً فأوى) (٦) إلى آخره . وقوله : (ألم نشرح لك صدرك) (١) . مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها في الاشتمال على وصف الجنة والنار ، ماعدا المدثر في الاشتمال على وصف يوم القيامة وأهواله ، وعلى ذكر بدء الخلق ، وإقامة الدليل على البعث .

وأيضاً في سورة الرسائل : (لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل) (١٢ - ١٤) . وفي هذه السورة : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً) (١٧ ، ١٨) إلى آخره . فكان هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره في السورة التي قبلها ^(١) .

« سورة عبس »

أقول : وجه وضعها عقب النازعات مع تأخيرها في اللقطع ، لقوله هناك : (فإذا جاءت الطامة) (٣٤) . وقوله هنا : (فإذا جاءت الصاخة) (٣٣) . وها من أسماء يوم القيامة ^(٢) .

(١) لم يذكر المؤلف سورة النازعات ، ومناسبتها لما قبلها . ونرى والله أعلم : أنه طال وصف يوم القيامة في النبأ ، ثم ذكر في النازعات حجة من انكرها ، ورد عليها ، فقال : (يقولون أننا لمردودون في الحافرة . انذا كنا عظامنا نخرة) (١٠ - ١١) . وفكر ندامتهم على تفریطهم بقوله : (قلوا تلك ان كن كره خاسرة ١٢) . ثم أكد قدرته على احياء الموتى ، واتام الدليل عليها في بقية السورة .

(٢) لم يذكر المؤلف سر الترتيب ونقول : ان الطامة من الطم ، من طمط البئر ، اذا كبستها ، وسميت به القيلة لانها تطم كل شيء . والصاخة من الصخ ، وهو الصوت الشديد ، وسميت به لانه بشدة صوتها يجتو لها الناس . وخصت النازعات بالطم لانه قبل الصخ ، فكانت عبس لاحقة للنازعات بطبيعتها . انظر (اسرار التكرار في القرآن ٢٠١) .

« سورة التكوير »

أقول : لما ذكر في عبس : (فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه)
(٣٤ ، ٣٥) الآيات . ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين . وفي الحديث : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إذا الشمس كورت) .
و (إذا السماء انفطرت) . و (إذا السماء انشقت) »^(١) .

« سورة الانفطار »

أقول : قد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا ، مع زيادة تأخيرها في المقطع^(٢) .

« سورة المطففين »

أقول : الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظيرتها من خمسة أوجه : الافتتاح بـ (إذا السماء) ، والتخلص بـ (يا أيها الإنسان) ، وشرح حال يوم القيامة ، ولهذا ضمت بالحديث السابق ، والتناسب في المقدار ، وكونها مكية .

وهذه السورة مدنية ، ومفتتحها ومخلصها غير مالمها ، لنكتة ألهمنيها الله . وذلك أن السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه .

فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار ، وقع في صدر يوم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٧٢/٢ . والترمذي في التفسير ٢٥٢/٩ ، ٢٥٣ بتحفة الاحوذى .

(٢) مقطع التكوير : (وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين) (٢٩) . ومقطع الانفطار : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) (١٩) وهما بمبنى .

القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة العرق والأهوال ، فذكره في هذه السورة بقوله : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) (٦٤) . ولهذا ورد في الحديث : « يقوم أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه » (١) .

ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الكتب ، فأخذ باليمن ، وأخذ بالشمال ، وأخذ من وراء الظهر ، ثم بعد ذلك يقع الحساب .

هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث ، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب (٢) ، عن السورة التي قبلها ، والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادئ يوم القيامة .

ووجه آخر ، وهو : أنه جل جلاله لما قال في الانفطار : (وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين) — (١١ ، ١٢) . وذلك في الدنيا ، ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحفاظان ، وهو : كتاب مرقوم جعل في عليين ، أوفى سبحانه ، وذلك أيضاً في الدنيا ، لكنه عقيب بالكتابة ، إما في يومه ، أو بعد الموت في البرزخ كما في الآثار . فهذه حالة ثانية في الكتاب ذكرت في السورة الثانية .

وله حالة ثالثة متأخرة فيها ، وهي أخذ صاحبه باليمين أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التي فيها ذلك ، عن السورة التي فيها الحالة الثانية ، وهي الانشقاق ، فله الحمد على ما من بالفهم لأسرار كتابه .

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٢٠٧/٦ عن ابن عمر - وأحمد في المسند مع اختلاف في اللفظ ١٢/٢ ، ١٩ ، وعلى المطبعة ٣١/٢ .

(٢) وذلك في قوله : (فأما من أوتي كتابه بيمينه) إلى : (ويصلى سميراً) (٧ - ١٢) .

ثم رأيت الإمام فخر الدين قال في سورة المطففين أيضاً : اتصال أولها
بآخر ما قبلها ظاهر ، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته : (لا تملك
نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) . وذلك يقتضى تهديداً عظيماً للعصاة ،
فلهذا أتبعه بقوله : (ويل للمطففين) الآيات .

« سورة الانشقاق »

قد استوفى الكلام فيها في سورة المطففين .

« سورة البروج والطارق »

أقول : هما متآخيتان فقرنتا ، وقدمت الأولى لطولها ، وذكرنا بعد
الانشقاق للمؤاخاة في الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد في الحديث ذكر
السموات مراداً بها السور الأربع^(١) ، كما قيل : للمسبحات .

« سورة الأعلى »

أقول : في سورة الطارق ذكر خلق [النبات] والإنسان في قوله : (والأرض
ذات الصدع) (١٢) [وقوله : (فلينظر الإنسان مم خلق) إلى (إنه على رجعه
لقادر) — (٦ — ٨)] . وذكره في هذه السورة في قوله : (خلق فسوى) (٢) .
وقوله في النبات : (والذي أخرج المرعى . فجعله غناء أحوى) (٣ ، ٤) .
وقصة النبات في هذه السورة أبسط ، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط . نعم ،
مافي هذه السورة أعم ، من جهة شموله للإنسان ومآثر المخلوقات .

« سورة الفاتحة »

أقول : لما أشار سبحانه في سورة الأعلى بقوله : (مذكر من يخشى .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٢٧ من أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقرأ بالسجدة في العشاء . يعني : السور الأربع المفتحة بذكر السماء .

ويتجنبها الأشقي . الذي يصل النار الكبرى) إلى قوله : (والآخرة خير وأبقى)
 « ١٠-١٧ » . إلى المؤمن والكافر ، والنار والجنة إجمالاً ، فصل ذلك في هذه
 السورة . فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما ، على نمط
 ما هناك ، ولذا قال [هنا] : (عاملة ناصبة) (٣٣) . في مقابل : (الأشقي)
 « ١٠ » [هناك] وقال [هنا] (تصلى ناراً حامية) (٤) إلى : (لا يسمن
 ولا يغني من جوع) (٧) . في مقابلة : (يصل النار الكبرى) (١٢) [هناك] .
 ولما قال [هناك] في الآخرة : (خير وأبقى) (١٦) . بسط [هنا] صفة الجنة
 أكثر من صفة النار ، تحقيقاً لمعنى الخيرية .

« سورة الفجر »

أقول : لم يظهر لى من وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة
 ماختم به السورة التي قبلها ، من قوله جل جلاله : (إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا
 حسابهم) (٢٥-٢٦) . وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد . كما أن أول
 الذاريات قسم على تحقيق مافي (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق مافي (عم)
 هذا مع أن جملة (ألم تر كيف فعل ربك) (٦) هنا ، مشابهة لجملة
 (أفلا ينظرون) (١٧) هناك^(١) .

(١) بل هناك وجوه ارتباط أوضح مما ذكر المؤلف . وذلك : أنه تعالى ذكر في الفاشية
 صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما ذكر في سورة الاعلى . ثم زاد الأمر
 تفصيلاً في الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار ، فحضر لذلك مثلاً يقوم عاد ،
 وقوم فرعون ، في قوله : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) إلى (أن ربك لبالمرصاد)
 (٦- ١٤) . ثم ذكر بعض عناصر طغيانهم في قوله : (كلا بل لا تكرمون البيت)
 (١٧) وما بعدها : فكانت هذه السورة بمثابة إقامة الحجة عليهم .

وكنك جاء في الفاشية : (إنما أنت تذكر لست عليهم بمسيطر (٢١- ٢٢) .
 ثم ذكر في الفجر مادة تفكير من كان قبلم من الكفار ، ثم أخذ الله إياهم في الدنيا ،
 وأنه سيعذبهم في الآخرة ، وأن النعم لن ينفعهم شيئاً ، فقال : (يومئذ يفتكر ،
 الاتصان واني له الذكرى . يقول يا ليتني قدمت لحياتي (٢٣ ، ٢٤) .

« سورة البلد »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها . أنه لما ذم فيها من أحب المال ، وأكثر التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال ، من فك الرقبة ، والإطعام في يوم ذى مسغبة^(١) .

« سورة الشمس والليل والنضحى »

أقول : هذه الثلاثة حسنة التماسق جداً ، لما في مطالعها من المناسبة ، لما بين الشمس والليل والنضحى من الملازمة ، ومنها سورة الفجر ، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم ، كما فصل بين الانفطار والانشقاق وبين المسبحات ، لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول ، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد في المناسبة .

ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد ، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفذلكة . فقوله [في الشمس] . (قد أفلح من زكاها) (٩) . هم أصحاب الميمنة في سورة البلد ، وقوله : (وقد خاب من دساها) (١٠) [في الشمس] ، هم أصحاب المشأمة في سورة البلد ، فكانت هذه السورة فذلكة تفصيل تلك السورة : ولهذا قال الإمام : المقصود من هذه السورة . الترغيب في الطاعات ، والتحذير من المعاصي .

ونزيد في سورة الليل : أنها تفصيل لإجمال سورة الشمس ، فقوله . (فأما

(١) ومن التناسب أيضا بين هذه السور وسابقتها : أنه تعالى لما ذكر في تلك ابتلاء الإنسان بضيق الرزق بسبب عدم إطعام المسكين ، وعدم إكرام اليتيم ، ونهى عليه حب المال ، ذكر في هذه نعمة يوم القيامة ، وتذكروا حبس المال ، وذلك حين يقول : : (يا ليتنى قدمت لحياتى (٢٤) .

من أعطى واتقى) «٥» وما بعدها ، تفصيل (قد أفلح من زكاهما) . وقوله :
(وأما من بخل واستغنى) «٨» الآيات ، تفصيل قوله . (وقد خاب من دساها) .
ونزيد في سورة الضحى : أنها متصلة بسورة الليل من وجهين . فإن فيها .
(وإن لنا للآخرة والأولى) «١٣» . وفي الضحى : (وللآخرة خير لك من
الأولى) «٤» . وفي الليل . (ولسوف يرضى) «٢١» . وفي الضحى . (ولسوف
يعطيك ربك فترضى) «٥» .

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ ، افتتحت بالضحى ، الذى
هو نور . ولما كانت سورة الليل سورة أبى بكر ، يعنى : ماعدا قصة البخیل^(١) ،
وكانت سورة الضحى سورة محمد ، عقب بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ، ليعلم
ألا واسطة بين محمد وأبى بكر .

« سورة ألم نشرح »

أقول : هى شديدة الاتصال بسورة الضحى ، لتناسبهما في الجمل . ولهذا
ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما^(٢) . قال الإمام :
والذى دحاهم إلى ذلك هو : أن قوله : (ألم نشرح) كالعطف على : (ألم يجدك
يتيها قآوى) «٦» [في الضحى]^(٣) .

قلت : وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال : « يا محمد ، ألم أجذك

-
- (١) الذى نزل في أبى بكر من هذه السورة قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى)
إلى (فسنيسره لليمرى) . أخرج ابن جرير أنه كان يعتقد على الإسلام بمكة
عجائز ونساء إذا أسلمن فلامه أبوه ، فنزلت (تفسير ابن جرير الطبرى : ١٤٢/٧٠)
(٢) نقل هذا القول فخر الدين الرازى في تفسيره عن طاووس وعمر بن عبد العزيز
(تفسير سورة الضحى) .
(٣) هى كالعطف في المعنى لا في اللفظ . ثم ان هذه السورة شرح لسابقتها ، فشرح
الصدر هناك ، مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التى هى : الإيواء بعد
اليتم ، والهداية بعد الضلال ، والغنى بعد العيلة . فذلك كلها من موامل
انشراح الصدر للامان ، لا سيما وقد جاءت بعد وعد بالعطاء حتى يرضى الرسول .

يتما فأويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ،
وحططت هناك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت ، الحديث .
أخرجه ابن أبي حاتم ^(١) . وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى .

« سورة التين »

أقول : لما تقدم في سورة الشمس : (ونفس وما سواها) (٣) . فصل
في هذه السورة بقوله : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل
سافلين) (٤ ، ٥) إلى آخره .

وأخرت هذه السورة لتقدم ماهو أنسب بالتقديم من السور الثلاث ^(٢) ،
واتصالها بسورة البلد لقوله : (وهذا البلد الأمين) (٣) . وأخرت لتقدم ماهو
أولى بالمناسبة مع سورة الفجر ^(٣) .

لطفة :

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري في « لطائف المزن » عن الشيخ
أبي العباس المرسى ، قال قرأت مرة : (والتين والزيتون) إلى أن انتهيت إلى
قوله : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين) (٤ ، ٥) .
ففكرت في معنى هذه الآية ، فألهمني الله أن معناها : لقد خلقنا الإنسان في أحسن
تقويم روحاً وعقلاً ، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى ^(٤) .

قلت : فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد (ألم نشرح) . فإن تلك أخبر

-
- (١) الحديث ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم : ٤٥٢/٨
 - (٢) يعنى (الليل ، والضحى ، والم نشرح) . فان مناسبتها متوالية هكذا اهم من تقديم التين بعد الشمس .
 - (٣) يعنى ان اتصال سورة الشمس بالبلد ، واتصال البلد بالفجر ، اولى من اتصال التين بالبلد مجرد ذكر (البلد في كليهما) .
 - (٤) لطائف المزن ص ١١٨ . المطبعة الفخرية ١٩٧٢ القاهرة .

فيها من شرح صدر النبي ﷺ ، وذلك يستدعي كمال عقله وروحه ، فكلاهما في القلب الذي محله الصدر ، وعن خلاصه من الوزر الذي ينشأ من النفس والهوى ، وهو معصوم منهما ، وعن رفع الذكر ، حيث نزه مقامه عن كل مؤرم فلما كانت هذه السورة في هذا العلم الفرد من الإنسان ، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسي ، وذكر ما خامرهم في متابعة النفس والهوى .

« سورة العلق »

أقول : لما تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم ، بين هنا أنه تعالى : (خلق الإنسان من علق) (٢) . وذلك ظاهر الاتصال ، فالأول بيان العلة الصورية ، وهذا بيان العلة المادية (١) .

« سورة القدر »

قال الخطابي : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ على القرآن ، ووضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) (١) . الإشارة إلى قوله . (اقرأ) (٢) . قال القاضي أبو بكر بن العربي . وهذا بديع جداً (٣) .

- (١) أقول : ومن المناسبة بين التين والعلق .
 (١) أنه تعالى لما قال في آخر التين : (ليس الله بأحكم الحاكمين) . .
 بين في أول العلق أنه تعالى مصدر علم العباد بحكمته . فبين أنه « علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . وصدر ذلك بالامر بالقراءة ، واستفتاحها باسمه دائماً ، لتكون للإنسان عوناً على كمال العلم بحكمة أحكم الحاكمين .
 (ب) لما ذكر في التين خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ورده إلى أسفل سافلين . بين في العلق تفصيل الحالين وأسبابهما من أول قوله : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (٦ ، ٧) . إلى « ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) . الخطابي هو : أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان . له شرح سنن أبي داود وبيان أمجاد القرآن . توفي سنة ٢٨٨ (وفیات الأعيان : ١ / ١٦٦) . والنقل من (البرهان لأبي جعفر بن الزبير) كما قال السيوطي « الاقتان : ٢ / ٢٨٢ » .
 (٢) أقول : وهناك مناسبة أخرى خفية . هي أنه تعالى لما ختم العلق بالامر بالسجود والاقتراب من الله ، وكان المقصود من الاقتراب : التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلين ، والصلاة لا تكون الا بقرآن ، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمة في ذاته ، ورحمة في الزمان الذي نزل فيه وهو ليلة القدر التي تنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون .
 (٣)

« سورة لم يكن »

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها ، كأنه لما قال سبحانه :
(إنا أنزلناه) (١) . قيل : لم أنزل ؟ فقيل . لأنه لم يكن الذين كفروا منفيين
عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، وهو رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . وذلك
هو المنزل .

وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان في هذه السورة قرآنٌ نسخ رسمه وهو :
إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم وادياً لابتغى
إليه الثاني ، ولو أن له الثاني لابتغى إليه الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم
إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب (٢) .

وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها ، حيث ذكر هناك
إنزال القرآن ، وهنا إنزال المال ، وتكون السورتان تغليلاً لما تضمنته سورة
اقرأ ، لأن أولها ذكر العلم ، وفي أثنائها ذكر المال . فكأنه قيل : إنا لم نزل
المال للطفيان والاستطالة والفخر ، بل ليستعان به على تقوانا ، وإقامة الصلاة ،
 وإيتاء الزكاة (٣) .

« سورة الزلزلة »

أقول : لما ذكر في آخر (لم يكن) أن جزاء الكافرين جهنم ، وجزاء
المؤمنين جنات ، فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقيل : (إذا زلزلت الأرض
زلزالها) (١) . أى [حين] تكون زلزلة الأرض ، إلى آخره .

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد : ١٤٠/٧ عن أبي واقد الليثي . قال : قال
لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله عز وجل قال : إنا أنزلنا
المال ... الحديث . وعزاه إلى أحمد والطبراني . وقال : رجال أحمد رجال
الصحيح .

(٢) العلم في قوله تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) . والمال في قوله :
(أن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

هكذا ظهر لي ، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازي ، ورأيت ذكر نحوه حمدت الله كثيراً . وعبارته : ذكروا في مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوها منها : أنه تعالى لما قال : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) (٨) . فكان المكلف قال : ومتى يكون ذلك يارب ؟ فقال : (إذا زلزلت الأرض) .

ومنها : أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين ، ووعد المؤمنين ، أراد أن يزيد في وعيد الكافرين فقال : (إذا زلزلت الأرض) . ونظيره : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . ثم ذكرما للطائفتين فقال : (فأما الذين اسودت وجوههم) إلى آخره . ثم جمع بينهما هنا في آخر السورة بذكر الذي يعمل الخير والشر . انتهى .

« سورة العاديات »

أقول : لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة : (وأخرجت الأرض أثقالها) (٢) وقوله في هذه السورة : (إذا بعثر ما في القبور) (٩) . من المناسبة والعلاقة (١) .

« سورة القارعة »

قال الإمام : لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) (١١) . فكانه قيل : وماذا ؟ فقال : هي القارعة . قال : وتقديره : متأتيتك القارعة على ما أخبرت عنه بقولي : (إذا بعثر ما في القبور) (٩) .

(١) أقول : وهناك مناسبة أخرى . هي : بيان الأصل الذي يضل به الإنسان أو يهتدى . فلما ذكر في آخر الزلزلة جزاء الإنسان على الخير والشر . بين هنا أن الإنسان بطبيعته يحب الخير ، وحب للخير أما للنفس وهو الشر ، وأما للآخرة وهو حقيقة الخير . فهذا الحب هو الذي يوجه الأعمال . ثم ذكر الإنسان بيوم يكشف فيه عما في القلوب من نوايا خفية : « أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور » إلى آخر السورة . وقد زاد الأبرر تفصيلاً في السور التالية .

« سورة التكاثر »

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها ، كأنه لما قال هناك : (فأمة هاوية) (٩) . قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم (أهلًاكم التكاثر) (١٠) . فاشتغلتم بدنياكم ، ولأنتم موازينكم بالخطام ، فخفت موازينكم بالآثام ، ولهذا عقبها بسورة العصر ، للمشكلة على أن الإنسان في خسر ، بيان لخسارة تجارة الدنيا ، وريح تجارة الآخرة ، ولهذا عقبها بسورة الحمزة ، للتوعّد فيها من جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخذه . فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع ، وحسن اتساقها (١) .

« سورة الفيل »

ظهر لى فى وجه اتصالها بعد الفكرة : أنه تعالى لما ذكر حال الحمزة الهزّة ، الذى جمع مالا وعدّه ، وتمرّز بماله وتقوّى ، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر أموالا وهتوا ، وقد جعل كيدهم فى تضليل ، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه ، وجعلهم كعصف مأكول ، ولم يغن عنهم مالههم ولا عزهم ولا شوكتهم ، ولا فيلهم شيئا .
فن كان قصارى تعزّزه وتقوّيه بالمال ، وهمز الناس بلسانه ، أقرب إلى الهلاك ، وأدنى إلى الذلة والمهانة .

« سورة قريش »

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور فى أولها بالفعل فى آخر

(١) ومن المناسبة كذلك : التصريح هنا بوزن الاعمال التى أجعلها فى الزلزلة وبين أصلها فى العاديات .

تلك . ولهذا كانتا في مصحف أبي سورة واحدة^(١) .

« سورة الماعون »

أقول : لما ذكر تعالى في سورة قريش : (الذي أطعمهم من جوع) (٤) .
ذكر هنا ذم من لم يحض على طعام المسكين .

ولما قال هناك : (فليعبدوا رب هذا البيت) (٣) . ذكر هنا من سها
عن صلاته^(٢) .

« سورة الكوثر »

قال الإمام فخر الدين : هي كالمقابلة للتي قبلها ، لأن السابقة وصف الله سبحانه
فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة .
وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل : (إنا أعطيناك الكوثر) (١) . أى :
الخير الكثير . وفي مقابلة ترك الصلاة . (فصل) (٢) . أى . دُم عليها . وفي
مقابلة الرياء : (لربك) (٣) . أى : لرضاء ، لا للناس . وفي مقابلة منع الماعون :
(وانحر) (٤) . وأراد به : التصدق بلحوم الأضاحي . قال : فاعتبر هذه المناسبة
المعجبة .

(١) نقله السيوطي عن السجّاي في كتاب جمال القراء عن جعفر الصادق ، وأبى نعيم .
وقال : ويرداه ما أخرجه الحاكم والطبراني من حديث أم هانئ أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : فضل الله قريشاً بسبع ... وإن الله أنزل
فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم : لا يلاف قريش . ومع ذلك فصلة
قريش بالقبيل قائمة . فكان ما فعل الله بأصحاب القبيل كن لا يلاف قريش ، ولتأبين
طريق تجارتهم في رحلتى الشتاء والصيف . وقد كان من أهداف أبرهة
السياسية حرمان قريش من تجارتهم هذه .

(٢) أقول : إن السورة بكاملها تسير مع الخط الذي يبدأ من سورة الزلزلة كما
قلنا . فهي ترشد إلى الطريق السليم لاستعمال المال ، وبذله في عون يتامى ،
وأطعام المساكين ، وذلك عن طريق التحذير من إهمال هذا الطريق ، وتسمية
ماتع المون مكذباً بالدين .

« سورة الكافرون »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما قال : (فصل لربك) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون ، وبالغ في ذلك فكرر ، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه .

« سورة النصر »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه قال في آخر ما قبلها : (ولى دين) . فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه ، وسلم من شوائب الكفار والمخالفين ، فعقب ببيان وقت ذلك ، وهو مجيء الفتح والنصر ، فإن الناس حين دخلوا في دين الله أفواجاً ، فقد تم الأمر ، وذهب الكفر ، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه ، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وقته ﷺ (١) .

وقال الإمام فخر الدين : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار ، بالتبرى منهم ، وإبطال دينهم ، جزيتك هلى ذلك بالنصر والفتح ، وتكثير الأتباع .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما أعطاه الكون ، وهو : الخير الكثير ، ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه ، فعقبها بمجاهدة الكفار ، والتبرى منهم . فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح ، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه ، وأشار إلى دنو أجله ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال .

• توقع زوالا إذا قيل تم •

(١) أخرج البخارى هذا المعنى في التفسير : ٢٢٠/٦ ، ٢٢١ . عن ابن عباس .
والإمام أحمد في المسند : ٢١٧/١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ . وابن جرير في التفسير : ٢١٥/٢٠ .

« سورة تبت »

قال الإمام : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما قال : (لکم دینکم ولی دین) (١) . فكأنه قيل : إلهی ، وما جزأی ؟ فقال الله له : النصر والفتح . فقال : وما جزاء عمی الذی دعانی إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : (تبت یدأ أبی لهب) (٢) ، الآیات . وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللاً بقوله : (ولی دین) . ويكون الوعيد راجعاً إلى قوله : (لکم دینکم) . على حد قوله : (يوم تبیض وجوه وتسود وجوه فأما الذین اسودت وجوههم) .

قال : فتأمل فی هذه المجانسة الحافلة بین هذه السور ، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة^(١) ، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة^(٢) ، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله ، وبأمره .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما قال . (لکم دینکم ولی دین) كأنه قيل : یا إلهی ، ما جزاء المطیع ؟ قال : حصول النصر والفتح . فقيل : وما ثواب العاصی ؟ قال : الخسارة فی الدنيا ، والعقاب فی العقبی ، كما دلت علیه سورة تبت .

« سورة الاخلاص »

قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان فی اللفظ بین فواصلها ومقطع سورة تبت . وأقول : ظهر لی هنا غیر الوزان فی اللفظ : أن هذه السورة متصلة بقل یا أيها الکافرون فی المعنی . ولهذا قيل : من أسمائها أيضاً الإخلاص . وقد قالوا : إنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضاً مشتملة علیه . ولهذا قرن بينهما فی

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس : ٢٤٢/٨ ، ٢٤٣ . وفيها أنها آخر سورة نزلت .

(٢) الانتقان : ٩٦/١ .

القرأة في الفجر ، والطواف ، والضحى ، ومئة المغرب ، وصبح للمسافر ،
ومغرب ليلة الجمعة^(١) .

وذلك أنه لما نفي عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن
معبوده أحد ، وأقام الدليل عليه بأنه صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد
ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، وليس في معبوداتهم ما هو كذلك .

وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين^(٢) لما تقدم من الحكمة ، وكأن
إيلاهما سورة ثبت ورد عليه بخصوصه .

« سورة الفلق والناس »

أقول : هاتان السورتان نزلتا معاً ، كما في الدلائل للبيهقي . فلذلك قرنتا ،
مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أهوذ ، وعقب
بهما سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت في الحديث بالمعوذات ، وبالقوافل^(٣) .
وقد مت الفلق على الناس — وإن كانت أقصر منها — لمناسبة مقطعها

(١) أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر : ١٢٠/٢ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر سئراً بالكافرين والإخلاص . وأخرج ابن حجر في المطالب المسالية : ٣٩٩/٢ عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول بضماً وعشرين مرة : « نعم السورتان يقرأ في الركعتين : الإحد الصمد ، وقل يا أيها الكافرون » وأخرج عن أبي يعلى من حديث جبير بن مطعم أنه صلى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ : الكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتين « المصدر السابق : ٣٩٨/٣ » .

(٢) يعني بين (الكافرين والإخلاص) بالنصر وثبت .

(٣) الذي عثرت عليه حديث عبد الله بن خبيب عن أبيه قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآخذ بيدي فقال : « قل . فسكته . فقال : قل . فقلت : ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تسي وحين تصبح ثلاثاً تكلك ، كل يوم مرتين » (مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٥ وأبو داود في الأدب ما يقول إذا أصبح : ١٧٦/٢ والنسائي في الاستعاذة : ٢٥٠/٨ . والترمذي في الدعوات : ٢٤٧/٦ وحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتموذ بهن كل ليلة ثلاث مرات (البخاري في فضائل القرآن : ٢٢٢/٦) . ونقل السيوطي عن السخاوي قوله : « وقوارع القرآن الآيات التي يتموذ بها ويتحصن ، سميت بذلك لأنها تفرع الشيطان وتقمعه كآية الكرسي والمعوذتين » . الاثنان : ٢٠١/١ . أما كلمة (القوافل) التي ذكرها المؤلف فلم نعرف عليها في الحديث النبوي ومصادره .

في الوزن لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت^(١) .

وهذا آخر ما من الله به على من استخراج مناسبات ترتيب السور ، وكله من مستنبطاتي ، ولم أعثر فيه على شيء لغيري إلا التزر اليسير الذي صرحت بعزوي له ، فله الحمد على ما ألهم ، والشكر على ما من به وأنعم ، سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أئنت على نفسك .

ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر في تفسيره كلاما لطيفا في مناسبات هذه السور ، فقال في سورة الكوثر :

اعلم أن هذه السورة كالنخلة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها .

أما الأول ، فلأنه تعالى جعل سورة الضحى في مدح النبي ﷺ ، وتفصيل أحواله ، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته . (ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . وسوف يعطيك ربك فترضى) (٣ - ٥) . ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا : (ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى) (٦ - ٨) .

ثم ذكر في سورة « ألم نشرح » أنه شرفه بثلاثة أشياء : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

ثم شرفه في سورة التين بثلاثة أشياء أنواع : أقسم ببلده ، وأخبر بإخلاص أمته من الناس بقوله : (إلا الذين آمنوا) (٦) . ووصلهم إلى الثواب بقوله : (فلهم أجر غير ممنون) (٦) .

وشرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع : (اقرأ باسم ربك) . وقهر خصمه

(١) بمقطع النلق (حسد) مناسب لفواصل الإخلاص (أحد . الصبد . أحد) ومقطع تبت (مسد) وكلها متفقة في الوزن .

بقوله : (فليدع نادية . مستدع الزبانية) (١٨٠) . وتخصيصه بالقرب في قوله :
(وامجد واقرب) (١٩٠) .

وشرفه في سورة القدر ببليلة القدر ، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة : كونها
خيراً من ألف شهر ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وكونها سلاماً حتى
مطلع الفجر .

وشرفه في (لم يكن) بثلاثة أشياء : أنهم خير البرية ، وجزاؤهم جنات ،
ورضى عنهم .

وشرفه في الزلزلة بثلاثة أنواع : إخبار الأرض بطاعة أمته ، ورؤيتهم
أعمالهم ، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن النرة .

وشرفه في العاديات بإقسامه بخيل الغزاة من أمته ، ووصفها بثلاث صفات .
وشرفه في القارعة بنقل موازين أمته ، وكونهم في عيشة راضية ، ورؤيتهم
أهدأهم في نار حامية .

وفي ألهاكم التكاثر ، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة : يرون الجحيم ، ثم
يرونها عين اليقين ، ويسألون عن النعيم .

وشرفه في سورة العصر بمدح أمته بثلاث : الإيمان ، والعمل الصالح ،
وإرشاد الخلق إليه ، وهو : التواصي بالحق والصبر .

وشرفه في سورة الهمة بوعيد عدوه بثلاثة أشياء : ألا ينتفع بديناه ،
ويعذبه في الحطمة ، ويغلق عليه .

وشرفه في سورة الفيل بأن رد كيد عدوه بثلاث : بأن جعله في تضليل ،
وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعلهم كعصف ما كول .

وشرفه في سورة قريش بثلاث : تألف قومه ، وإطعامهم ، وأمنهم .

وشرفه في الماعون بنم هده ثلاث : الدعاة ، واللؤم في قوله . (فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين) (٢٣ ، ٢٤) . وترك تعظيم الخالق في قوله : (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراعون) (٤ - ٦) . وترك نفع الخلق في قوله : (ويمنعون الماعون) (٦) .

فلما شرفه في هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال : (إنا أعطيناك الكوثر) . أى : هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه السور ، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بخلافها ، فاشتغل أنت بعبادة ربك ، إما بالنفس ، وهو قوله . (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله . (وأنحر) . وإما بإرشاد العباد إلى الأصلاح ، وهو قوله : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) . الآيات . فثبت أن هذه السورة كالتممة لما قبلها .

وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو : أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف عن أهل الدنيا جميعاً بقوله : (قل يا أيها الكافرون) . إلى آخر السورة . ويبطل أذاهم ، وذلك يقتضى نصرهم على أعدائهم ، لأن الطعن على الإنسان في دينه أشد عليه من الطعن في نفسه وزوجه ، وذلك مما يجنب عنه كل أحد من الخلق ، فإن موسى وهارون أرسلوا إلى فرعون واحد فقالا : (إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (٢٠ : ٤٥) . ومحمد ﷺ مرسل إلى الخلق جميعاً ، فكان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه . فدبر الله في إزالة الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، بأن قدم هذه السورة ، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير ، ومن جلته أيضاً : الرئاسة ، ومفاتيح الدنيا ، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا ، وذلك أدعى إلى مجاهدتهم بالمداوة ، والصدع بالحق ، لعدم تطلعه إلى ما بأيديهم ثم ذكر بعد سورة الكافرين سورة النصر ، فكأنه تعالى يقول : وعدتك

بالخير الكثير ، وإتمام أمرك ، وأمرتك بإبطال أديانهم ، والبراعة من
معبوداتهم ، فلما امتثلت أمرى أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر ، وكثرة
الأتباع ، بدخول الناس في دين الله أفواجا .

ولما تم أمر الدهوة والشريعة ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن
وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، فليس له إلا
الذل والخسارة والهوان ، والمصير إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت . وإما
أن يكون طالباً للآخرة ، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمراة التي تنتش فيها
صور الموجودات .

وقد ثبت أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من قال :
أعرف الصانع ، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق
الأشرف ، ومنهم من عكس^(١) ، وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بذلك الطريقة التي هي أشرف . فبدأ
بذكر صفات الله ، وشرح جلاله ، في سورة الإخلاص . ثم أتبعه بذكر مراتب
مخلوقاته في الفلق ، ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية في الناس ، وعند ذلك
ختم الكتاب . فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة
في كتابه المكرم . هذا كلام الإمام .

ثم قال في سورة الفلق : سمعت بعض العارفين يقول : لما شرح الله سبحانه

(١) طريق الجمهور يترتب عليه : أن تكون المخلوقات دليلاً على وجود الخالق . وطريق
الخاصة يترتب عليه أن يكون الله دليلاً على وجود خلقه . الأول معرفة صعودية ،
والثاني معرفة نزولية .

أمر الإلهية في سورة الإخلاص ، ذكر هاتين السورتين عقبها في شرح مراتب الخلق على ما قال : (ألا له الخلق والأمر) .

فعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة ، والجمانيات . فلا جرم قال في المطلع : (قل أعوذ برب الفلق) . من شر ما خلق (١ ، ٢) .

ثم الأجسام إما أبدية ، وكلها خيرات محضة ، لأنها بريئة عن الاختلافات والفتور ، على ما قال : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) (٦٧ : ٣) . وإما عنصرية ، وهي إما جهادات ، فهي خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمات فيها خالصة ، والألوان عنها زائلة ، وهو المراد من قوله : (ومن شر غاسق إذا وقب) (١١٣ : ٣) . وإما نبات ، والقوة العادلة هي التي تزيد في الطول والعمق معاً ، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث في العقدة . وإما حيوان ، وهو محل القوى التي تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد بقوله : (ومن شر حاسد إذا حسد) .

ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهي المستفيدة ، فلا يكون مستفاداً منها ، فلا جرم قطع هذه السورة ، وذكر بعدها في سورة الناس مراتب ودرجات النفس الإنسانية . انتهى .

ولم يبين للمراتب المشار إليها . وقد بينها ابن الزملكاني في أسرار^(١) فقال :

إضافة (رب) إلى (الناس) تؤذن بأن المراد بالناس : الأطفال ، لأن الرب من : رَبِّهِ يَرْبُهُ ، وهم إلى التربية أحوج . وإضافة (ملك) إلى (الناس) .

(١) هو كتاب : « نهاية التأميل في أسرار التنزيل » خط (٤٧١) تفسير تيمور بدار الكتب المصرية .

تؤذن بإرادة الشباب به ، إذ لفظ (مالك) يؤذن بالسياسة والعزة ، والشبان إليها أحوج . وإضافة (إله) إلى (الناس) تؤذن بأن المراد به الشيوخ ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة ، وهم أقرب . وقوله : (يوسوس في صدور الناس) يؤذن بأن المراد بالناس : العلماء والعباد ، لأن الوسوسة غالباً عن الشبهة . وقوله : (من الجنة والناس) يؤذن بأن المراد بالناس : الأشرار . وهم شياطين الإنس الذين يوسوسون لهم . والله تعالى أعلم^(١) .

* * *

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

قال مؤلفه نفعنا الله ببركاته ، وأمدنا من نفحاته : فرغت من تأليفه يوم الأحد ، الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ذكر تاج القراء الكرمانى هذِهِ المعانى مختصرة فى اسرار التكرار فى القرآن : ٢١٥ ولم ينسبها الى احد ولم يشر ابن الزملكلى الى الكرمانى رغم تاخره عنه .

مصادر التحقیق

مصادر التحقيق

- ١ - القرآن الكريم •
- ٢ - الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى •
- ٣ - ارشاد الرحمن فى الناسخ والمنسوخ والمتشابه وأسباب النزول
وتجويد القرآن للأجهودى (خط) الأزهرية بمصر •
- ٤ - أسرار التكرار فى القرآن لتاج القراء الكرمانى •
- ٥ - الأمد الأقصى لأبى زيد الدبوسى (خط) دار الكتب المصرية •
- ٦ - البدر الطالع للشوكانى •
- ٧ - بغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطى •
- ٨ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير •
- ٩ - تفسير البيضاوى •
- ١٠ - التكملة لابن الأبار •
- ١١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى •
- ١٢ - جامع البيان لابن جرير الطبرى •
- ١٣ - حقائق التفسير لأبى عبد الرحمن السلمى (خط) دار الكتب
المصرية •
- ١٤ - خواص القرآن الكريم لأبى حامد الغزالى •
- ١٥ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى •
- ١٦ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى •
- ١٧ - سنن أبى داود •
- ١٨ - سنن الترمذى •
- ١٩ - سنن النسائى •
- ٢٠ - سنن الدارمى •
- ٢١ - سنن ابن ماجه •

- ٢٢ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام .
- ٢٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد .
- ٢٤ - شعب الايمان للبيهقى .
- ٢٥ - شرح الكشف للطيبى (خط) الأزهرية بمصر .
- ٢٦ - صحيح البخارى .
- ٢٧ - صحيح مسلم .
- ٢٨ - الضعفاء والوضعاون لابن الجوزى (خط) الأزهرية .
- ٢٩ - الضعفاء لشمس الدين الذهبى .
- ٣٠ - طبقات القراء للجزرى .
- ٣١ - العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية لابن الجوزى (خط) الأزهرية بمصر .
- ٣٢ - الكشف عز حقائق التنزيل للزمخشري .
- ٣٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمى .
- ٣٤ - ميزان الاعتدال للذهبي .
- ٣٥ - المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابورى .
- ٣٦ - مسند الامام أحمد بن حنبل .
- ٣٧ - المطالب العالية فى زوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلانى .
- ٣٨ - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى .
- ٣٩ - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى (خط) الأزهرية بمصر .
- ٤٠ - نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى .
- ٤١ - وفيات الأعيان لابن خلكان .

فهرس
الحديث النبوی والآثار

فهرس الحديث النبوى والآثار

الصفحة	الحديث
٩٦	١ - آخر ما نزل من القرآن المائدة
١٥٩	٢ - اشارة سورة النصر الى وفاته صلى الله عليه وسلم
٧٠	٣ - أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ٠٠ الحديث
١٤٩	٤ - أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ بالسموات في العشاء
١٥٥	٥ - انا أنزلنا المال لاقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ٠٠ الحديث
٧٠	٦ - انهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى
١٠٠	٧ - الأنعام شيعها سبعون ألف ملك
١٠٠	٨ - البقرة سنام القرآن وذروته
٨٢	٩ - البقرة فسقاط القرآن
٨٣	١٠ - التأمين فى آخر البقرة
١٢٥	١١ - تفسير لهُو الحديث بالغناء والملاهى
١١٣	١٢ - التوراة فى خمس عشرة آية من سورة بنى اسرائيل
١١٢	١٣ - الجبار الذى أراد أن يصعد السماء بالنسور
١٢٣	١٤ - خاتمة القصص اشارة الى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم
٩٠	١٥ - خلاف الصحابة فيمن رجع من المنافقين يوم أجد
١٠٥	١٦ - الرعد اسم ملك
١٣٦	١٧ - سبحان الذى وسع سمعه الأصوات
١٣٦	١٨ - سبب نزول آخر سورة المجادلة
١٣٦	١٩ - سبب نزول أول سورة الحشر
٧٣	٢٠ - سورة الحقد والحلع

- ٢١ - سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة ١٦٠
- ٢٢ - الصراط المستقيم كتاب الله ٧٧
- ٢٣ - صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال فى ركعة ٧٠
- ٢٤ - طرأ على حزبى من القرآن ٧٠
- ٢٥ - افتقر ربك فسأل ربه القرض ٨٨
- ٢٦ - قال اليهود : أوتينا علما كثيرا ٠٠ الحديث ١١٥
- ٢٨ - اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ٧٠ ، ٩٣
- ٢٩ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع المفصل فى ركعة ٧٠
- ٣٠ - لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ٠٠ الحديث ١٠١
- ٣١ - ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى ٠٠ الحديث ١٠٣
- ٣٢ - من سره أن ينظر الى القيامة كأنه رأى عين ٠٠ الحديث ١٤٧
- ٣٣ - نزول طه بعد مريم بعد الكهف ١١٦
- ٣٤ - نزول الشعراء ثم طه ثم القصص ١١٧
- ٣٥ - نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ١١٧
- ٣٦ - النجاشى وأصحابه من مؤمنى أهل الكتاب ٨٢
- ٣٧ - وفد نجران ٨٢
- ٣٨ - اليقين مفسر بالموت ١١١
- ٣٩ - يوم حمراء الأسد ٩٠
- ٤٠ - يونس نزلت بعد هود ثم يوسف ١٠٩

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة الأنبياء	١١٧	الإهداء	
سورة الحج	١١٧	الدراسة	
سورة المؤمنون	١١٨	عظمة القرآن ووحدته	
سورة النور	١١٨	الموضوعية	
سورة الفرقان	١١٩	ترتيب القرآن	
سورة الشعراء	١٢٠	الإمام السيوطي وكتابه	
سورة النمل	١٢١	مقدمة المؤلف	٦٥
سورة القصص	١٢٢	مقدمة في ترتيب السور	٦٨
سورة العنكبوت	١٢٣	سورة الفاتحة	٧٣
سورة لقمان	١٢٥	سورة البقرة	٧٦
سورة السجدة	١٢٥	سورة آل عمران	٨٣
سورة الأحزاب	١٢٦	سورة النساء	٨٨
سورة سبأ	١٢٦	سورة المائدة	٩٣
سورة فاطر	١٢٧	سورة الأنعام	٩٧
سورة يس	١٢٧	سورة الأعراف	١٠١
سورة الصافات	١٢٨	سورة الأنفال	١٠٣
سورة ص	١٢٨	سورة براءة	١٠٧
سورة الزمر	١٢٨	سورة يونس	١٠٧
سورة غافر	١٢٩	سورة هود	١٠٨
سورة القتال	١٣١	سورة يوسف	١٠٩
سورة الفتح	١٣١	سورة الرعد	١٠٩
سورة الحجرات	١٣٢	سورة إبراهيم	١١٠
سورة الذاريات	١٣٢	سورة الحجر	١١١
سورة الطور	١٣٢	سورة النحل	١١١
سورة النجم	١٣٣	سورة بني إسرائيل	١١٣
سورة القمر	١٣٣	سورة الكهف	١١٣
سورة الرحمن	١٣٤	سورة مريم	١١٥
		سورة طه	١١٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة الانشقاق	١٤٩	سورة الواقعة	١٣٤
سورة البروج والطارق	١٤٩	سورة الحديد	١٣٥
سورة الأعلى	١٤٩	سورة المجادلة	١٣٦
سورة الفاشية	١٤٩	سورة الحشر	١٣٦
سورة الفجر	١٥٠	سورة الممتحنة	١٣٧
سورة البلد	١٥١	سورة الصف	١٣٧
سورة الشمس والليل	١٥١	سورة الجمعة	١٣٧
والضحى		سورة المنافقون	١٣٨
سورة ألم نشرح	١٥٢	سورة التغابن	١٣٩
سورة التين	١٥٣	سورة الطلاق	١٤٠
سورة العلق	١٥٤	سورة التحريم	١٤٠
سورة القدر	١٥٤	سورة تبارك	١٤١
سورة لم يكن	١٥٥	سورة ن	١٤١
سورة الزلزلة	١٥٥	سورة الحاقة	١٤٢
سورة العاديات	١٥٦	سورة سأل	١٤٢
سورة القارعة	١٥٦	سورة نوح	١٤٢
سورة التكاثر	١٥٧	سورة الجن	١٤٣
سورة الفيل	١٥٧	سورة الزمل	١٤٣
سورة قريش	١٥٧	سورة المدثر	١٤٣
سورة الماعون	١٥٨	سورة القيامة	١٤٤
سورة الكوثر	١٥٨	سورة الانسان	١٤٤
سورة الكافرون	١٥٩	سورة المرسلات	١٤٥
سورة النصر	١٥٩	سورة عم	١٤٦
سورة تبت	١٦٠	سورة عبس	١٤٦
سورة الاخلاص	١٦٠	سورة التكويد	١٤٦
سورة الفلق والناس	١٦١	سورة الانفطار	١٤٧
		سورة المطففين	١٤٧

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٦/٤١٣٢
٨ - ٠٨ - ٧٠٥٣ - ٩٧٧

